الطبعة الأولى



نظرة في الدوافع النفسية للغلو

تأليف



تقديم الشيخ

أبي قتادة الفلسطيني حفظه الله



١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

نظرة في الدوافع النفسية للغلو

تأليف

أنس خطاب

تقديم الشيخ

أبي قتادة الفلسطيني حفظه الله



١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الشيخ/

أبي قتادة الفلسطيني حفظه الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين وعلى آله الطيبين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

عندما تتكاثر الأدلة في باب فإنها تُنسى لشهرتها، وتصبح المدلولات أقوى استحضاراً من الدليل، مع أن أصل وجودها الدليل، وقد تُهجر علوم عظيمة لأسمائها المحدثة، والتي قد تقترن هذه الأسماء بأمور لا يحبها الناظر فيها، فهذان أمران مفسدان للعلوم، أولهما لطروء النسيان، والثاني لطروء اقتران الحق بشخوص باطلة، وهذا ما أصاب ما يسمى بـ "علم النفس"، فتعليق الشارع الفساد والصلاح على حال النفس له من الأدلة التي تكاثرت حتى صار الحديث عن النفس أكثر من الحديث عن عليتها المنشأة للعمل، واقتران علم النفس بشخوص أهل الباطل نفَّر الناس من هذا الاسم الشرعي الصحيح.

لا يشك عالم بالكتاب والسنة أن النفس منشأ النوازع، فبصلاحها تصلح النوازع، وبفسادها تفسد النوازع، وأعظم ما يتعلق به وصف الفساد والصلاح هو العلم، فللنفس سطوة على العلوم أكثر من سطوتها على الشهوات، وباب سطوة النفس على الشهوات يعلمه الناس، عالمهم وجاهلهم، كل بحسب حاله، ولكن مما غاب، وما زال يغيب هو البحث والعلم بسطوة النفس على العلوم، فحيث استقامت النفس استقامت علوم العقل والقلب، وحيث فسدت النفس ألقى فسادها بالظلال المحكمة على علوم العقل والقلب، وهنا ينشأ فساد كبير، وهو ظن الفاسد أنه على الحق، لأن علمه يبرر له هذا الفساد، ويجعل له من الأدلة التي تخفي منشأ هذا الفساد؛ وهو النفس.

اختباء النفس الفاسدة وراء علوم العقل المبرِّر منشأ كل فساد في الوجود، وهو المؤدي قطعاً لحال أعظم فساد، وهو جاهل ولا يدري أنه جاهل، ويعادلها: جاهل يظن نفسه أعلم الخلق.

كيف يُلقي الكبر ظلاله على العلوم، فتصبح له مقررات عقلية متينة في نفس صاحبها، وكيف يلقي الظلم ظلاله على علم صاحبه فيتخفى وراء الدليل (النفسي=العقلي)، فيصرخ: هنا العلم الذي لا تجده إلا هنا؟!.

هذا مبحث عظيم، تَخَفَّى حيناً، وظهر مرات في كلام أهل العلم، ولكنه في كتاب الله تعالى أعظم ما يكون ظهوراً وبياناً:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾ [غافر: ٥٦].

تأمل هذه الآية العظيمة من سورة غافر، ترى فيها "جدالاً" والجدال لا يكون إلا بالعقل!، لأنه حوار لمادته ولآلته، ثم تأمل منشأ هذا الجدال العقلي بالباطل، لأنه ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾، ثم علق السبب كله على ﴿كِبۡرٞ﴾ ليسوا هم أهله، فالفقير والمحتاج والجاهل لا يتكبر، بل الكبرياء لا تكون إلا لله تعالى.

ثم تأمل كيف يُصرف الجهل، ترى أنه يُصرف بالصلاح النفسي ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

سورة غافر سورة بيان الجدل الباطل:

﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٣٥].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [غافر: ٦٩].

وهي سورة تفصيل الكبر مع هذا الجدال، فانظر:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾. [غافر: ٢٧].

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥].

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧ - ٤٨].

وانظر إلى مظاهر الكبر في السورة:

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩].

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥].

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣].

فهذا شيء من كثير في كتاب الله تعالى، ولذلك كان الجهل في القرآن لا يعادل عدم العلم فقط، ولكن يعادل عدم العمل وعدم اتباع الحق وترك العمل، وهو مقتضى العلم الصحيح.

والقصد من هذا بيان قيمة حال النفس على علوم المرء واختياراته، وأن النفس تخدع صاحبها في التخفي وراء العلم = الجهل، وهذا من أشق ما يكشفه المرء من نفسه، والسبب جريان سنة الله تعالى في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فأول الحال أن يقيم عليهم الحجة بالحق، فتعلمه النفس، ثم إذا استمرأت النفس الهوى بدأ تزيين العقل لها، حتى تظن الشر خيراً، والجهل علماً، والبدعة سنة، والباطل

حقاً، والله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [النمل: ٤]، فاتباع طريق الباطل يؤدي إلى رؤية الباطل حقاً، لما جرت به سنة الله تعالى من فتنة هؤلاء، وهم شر الخلق إن قابلوا أهل الإسلام من الكفار، وهم شر الخلق إن قابلوا أهل السنة من أهل البدع.

هذا الأمر، وهو البحث عن حال النفس ونوعها، وما يؤدي هذا النوع من اختيارات عقلية فاسدة هو من مباحث الحق، ومن مباحث علوم أهل الإسلام، وهو علم مبثوث في ثنايا كتب أهل العلم، وكلامهم التربوي العظيم، لكن قلما تجد من أفرد له أجزاء علمية خاصة، تكشف نفوس أهل الحق، ونفوس أهل الباطل، من الكفار والمنافقين والمبتدعة، ولذلك جاء بحث الشيخ أنس خطاب هنا ليجمع شيئاً يفتح هذا الباب، ويعطي بعض حسواته، فإن هذا الباب واسع عظيم، والشيخ هنا يبتدئ، ومن كان كذلك كانت كلماته كأثر القرع للتنبيه، ثم إن شاء الله يأتي البناء، وهو ولا شك ضرورة مهمة.

في كل موطن يتم فيه نقاش حال أهل الغلو من المبتدعة الخوارج، وفي كل جلسة يصدر من بعض الحكماء كلمة عجيبة إذا ذُكر أحد الملتحقين بهم، إذ يقال: (لم نُصدم بلحوقه بهم)، وحين يستطرد القائل في شرح رأيه، يقول: (خلقه يتوافق معهم!)، ويقصد أن نفسيته تتلاقى قبل ظهورهم بهذا النوع من الغلو، فهو نزق، غضوب، سيء الظن، لا يختار إلا الشدة إذا خير بين أمرين، ولا يختار الأيسر، وهكذا، وهؤلاء بهذا الكلام يقررون ما هو مقرر على الحق، وهو أن الغلو حالة نفسية، جامعة لأكبر شرين في الإنسان: الجهل والظلم، ثم ينتج عنهما خُلُق الكِبر، حيث يُرد الحق، ومن تتبع أصل الخوارج في زمن علي ﷺ، وجد أنهم متأهلون لهذه النفسية قبل خروجهم، وهذا حال أكثر قادتهم ورؤوسهم في زماننا.

أشكر للشيخ أنس جزأه العلمي هذا، وقد أحسن في أمرين آخرين غير ما تقدم:

- علم النفس المعاصر في كثير من جوانبه علم اعتذاري، يبرر للمجرم جرمه، وأن حاله أشبه بمريض العقل والبدن، حيث يعذر أمثال هؤلاء، وهذا من إجرام هؤلاء الزاعمين لهذا العلم، والشيخ نبَّه على هذا، وأن هذه الأمراض أي النفسية هي أعظم الأمراض، وهي التي تُحصَّل يوم القيامة، وسيُجزى عليها المرء حسنة أو سيئة، فقولنا: منحرف نفسي تعادل مذنب وآثم، وليست تبريراً لإجرامه.

- تعليق الفعل على علل قرآنية، كالكبر والظلم والتقعر، وحب الخلاف، واتباع الهوى، وهي علل لا يهتدي لها إلا القرآني، وأما ما يسمى بعلماء النفس فعللهم باردة باطلة، ولا يهتمون لهذه التعليلات القرآنية، ولا حاجة لذكر أقوال فرويد وتلميذه يانغ ومن جرى مجراهم، فهي من السخف بمكان، بل الكفر عياذاً بالله.

جزى الله الشيخ أنس خير الجزاء على هذه الكلمات، ونفع الله به، وجعلها في ميزان عمله الصالح يوم القيامة.

والحمد لله رب العالمين.

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على رسوله الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى . وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى . وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى . يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾

وبعد ..

فهذه رسالة مختصرة أكتبها بغية توجيه النظر لمسألة مهمة أحسب أنها بحاجة للبحث والنقاش، وهي قراءة الدوافع النفسية للغلو.

والغلو من الأمراض التي تضر بالأمة وتهلك أصحابها، وهذه سنة الله في الغلاة والمتنطعة، كما صح في مسلم وغيره من قول النبي ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» كررها ثلاثاً، وفي مسند أحمد: «إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِالغُلُوِّ فِي الدِّينِ» .وقد رأينا ذلك في واقعنا، إذ دمر الغلو والتنطع آلاف الشباب النافرين للجهاد من مختلف البلدان المسلمة، وأضرَّ بالجهاد في ساحات كثيرة، ثم أهلك أصحابه.

والغلو هو تجاوز الحد، وهذا يكون في كل شيء، فيكون الغلو في الحب والكره، ويكون في الطاعة والعبادة، كما يكون في الفجور والمعاصي، ويكون في الإرجاء، ويكون في التصوف، وغير ذلك من صور متعددة للغلو.

لكن المقصود بالغلو في حديثنا هو ما اصطلح عليه أهل العلم من الغلو في التكفير واستباحة الدماء.

وهذه الرسالة وإن كان موضوعها الدوافع النفسية للغلو، لكنها لا تبحث جميع هذه الدوافع، وإنما تقتصر على الإشارة لأهمها في واقعنا، إذ استيعاب الدوافع كلها يقتضي بحثاً مطولاً، وهذه مجرد رسالة مختصرة، والباب مفتوح لمزيد من البحث والمناقشة.

مع التنبيه إلى أن ما نذكره ليس تبريراً لأفعال الغلاة، وإنما محاولة لدراسة دوافعهم النفسية دراسة موضوعية، وذلك لنتمكن من معالجة الظاهرة علاجاً وقائياً؛ لا دوائياً.

والكلام في الدوافع النفسية للغلو وإن قُصِدَ به الخوارج، لكن لا يمتنع دخول غيرهم في معناه دخولاً جزئياً، وأما الخوارج فدخولهم أغلبي أو كلي، كلٌّ بحسبه، إذ مسلك الغلو أوله هذه الدوافع، ثم لا نهاية له، بحسب تطورها وتضخمها في نفوس الغلاة.

والأمة المسلمة في صحوتها المعاصرة والمكتبة العلمية ومناهج التربية بحاجة لكتابات تبحث في الدوافع النفسية للأفكار الضالة والمسالك المنحرفة، وهذا فيه شُحٌّ كبير رغم أهميته، والمتأمل في القرآن يجد اهتمامه بهذا الجانب، بينما الناظر في المكتبة الإسلامية يرى عزوف الباحثين وطلبة العلم عنه، والاهتمام بهذا الباب من العلم يقفز بنا قفزات كبيرة في معرفة الأسباب الحقيقية للضلال والانحراف وسبل علاجها، ويعيننا على تربية شباب الأمة تربية سنية صحيحة.

ومما ينبغي التنويه إليه أن استعمالنا لبعض مصطلحات علم النفس المعاصر لا يعني موافقته في جميع تقريراته وتفاصيل نظرته للنفس البشرية، فمعلوم انحرافه في كثير من المواضع، وذلك لغلبة المادة عليه وبعده عن توجيه خالق هذه النفس والعالِم بها، وإلحاد بعض أساطينه من الغربيين، وإن لم يخل هذا العلم المعاصر من فوائد، وأما النظرة الصحيحة للنفس فينبغي أن تنبع من شرح القرآن والسنة لها، مع تأمل أحوال الناس والاستفادة من كتابات وتجارب وملاحظات المختصين بهذا المجال.

واحتراماً لأمانة العلم وتخصصاته فقد عرضت رسالتي هذه على طبيب نفسي متخصص أعرفه، وهو متميز في مجاله، كما يعرف ذلك من يعرفه، فأشاد بها وأثنى عليها، وذكر أن فيها تعرضاً حقيقياً لأصل المشكلة وجذورها.

كما عرضت صلب ما فيها على من هو حاصل على درجة الدكتوراة العلمية في مجال علم النفس التربوي، فأقر ما كتبته من قراءة لهذه النفسيات المنحرفة.

ثم عرضتها كذلك على بعض المشايخ وطلبة العلم ممن لهم عِلمٌ بالنفس وطبائعها وأحوالها فأثنوا خيراً.

وهذا كله من فضل الله وحده وتوفيقه أحمده عليه.

ولا يفوتني التوجه بالشكر والتقدير لمن أشار علي منهم برأي أو نصيحة استفدت منها في هذه الرسالة التي أسأل الله أن ينفعني بها والمسلمين.

ويبقى أن هذه الرسالة جهد بشري قاصر، وهو قابل للصواب والخطأ، والأخذ والرد، لكن عزائي أني حاولت بذل الجهد واستفراغ الوسع في الفهم والنظر والوصول للحق والصواب، سائلاً الله التوفيق والسداد في إدراك أسباب هذه النازلة الخطيرة التي أرَّقت الأمة وأدمتها وأعملت السيف فيها، وكانت خنجراً في خاصرتها يستعمله عدوها بصورة مباشرة أو غير مباشرة لإيقاع الهزائم بها وتأخير النصر عنها.

والحمد لله رب العالمين ..

كتبه/

أنس خطاب

الخميس ٦ شعبان ١٤٤٠هـ

الموافق ١١ / ٤ / ٢٠١٩م

❖ أهمية دراسة الدوافع النفسية للغلو.

مما يُلاحَظ أن بعض الناس في علاجهم للغلو لم ينتهجوا سبلاً صحيحة لذلك، فهم يُكثرون من ذم الغلو والغلاة والتحذير من سبلهم ومسالكهم، دون أن يُعرِّفوا الناس بالغلو الذي يُحذِّرونهم منه، ودوافعه وأسبابه وطرق اجتنابه، وهذا مسلك غير مُجْدٍ، إذ لا يمكن للمرء أن يجتنب ما لا يدركه على وجه الحقيقة، وهذا مشاهد، فترى الرجل اليوم يُحذِّر من الغلو، ثم يقع فيه غداً، وترى الرجل اليوم يستعيذ بالله من الغلو بعد أن كَثُرَ تحذيره منه، ثم هو غداً ملتحق به مسارع فيه.

وسبب ذلك عدم إدراك حقيقة الغلو ودوافعه وأسبابه الكامنة في النفس على وجه صحيح، إذ أكثر التحذير اليوم من الغلو وأسبابه فيه إجمال مخل .. وهذا على خلاف نهج القرآن.

فالناظر في القرآن يجد أن الله حين أمر الناس بالإيمان والتوحيد لم يكتفِ بمجرد تكرار الأمر العام المجمل بالإيمان، ولم يكتفِ بمجرد تكرار لفظ التوحيد طالباً له، بل شرح حقيقة الإيمان وبيَّن أركانه وذكر معانيه، واستفاض في ذلك، وذكر أسباب زيادته ونقصانه، وحال المؤمنين مع أقوامهم، ومنازلهم في الآخرة، ومثله في النهي عن الكفر والشرك، واستعمل في ذلك مختلف الأساليب والطرق المثيرة لدوافع الخير والصلاح في النفس البشرية، مع تبصيرها بما قد يعتريها من نوازع شر وفساد كي تتخلص منها، وكذلك فعل النبي ﷺ حين حذر من الغلو ومسالك الضلال، فإنه شرحه وبيَّن معالمه للناس، وبين لهم الصراط السني المستقيم تفصيلاً.

وهكذا نرى الشريعة تستفيض في بيان أسباب ودوافع الضلال وطرق اجتنابه، كما تبين أسباب ودوافع الهداية وطرق إدراكها.

والقصد أن مجرد الإكثار من تحذير الناس من الغلو ومن ذم لفظ الغلو والغلاة دون شرح معاني ذلك ودون الاستفاضة في بيان أسبابه الحقيقية وطرق اجتنابه كما

هي طريقة القرآن لن يُبعد الناس عن الغلو ولن ينفرهم منه، إذ هم لم يفهموا بعد ماهية ذلك الغلو الذي يُحذَّرون منه، بل يُخشى نفورهم ممن يحذرهم منه، ليس حباً منهم للغلو، وإنما نفوراً من أسلوبه الرتيب غير المفهوم، الذي يرونه أقرب إلى التقريع واللوم والتوبيخ على ما لا يُفهم.

ولهذا لا تتحقق المعالجة الصحيحة والمثمرة للغلو إلا باتباع منهج الشريعة في ذلك، وذلك بالحديث عن حقيقة الغلو ومعانيه وأسبابه ودوافعه في النفس وطرق اجتنابه.

وللغلو أسباب نفسية وأخرى علمية، والمقصود بالأسباب العلمية هو الضد، أي الجهل، وهو إما بسيط أو مركب، والجهل قد يكون بالشرع وجزئيات أحكامه، وقد يكون بالواقع وتفاصيل أحداثه، وقد يكون جهلاً بالتاريخ وتجاربه، وقد يكون جهلاً بحركة الحياة وسننها الكونية، وربما كان جميع ذلك، ومن هنا ترد الشبهات على المرء فينخدع بها، ويقع في بدعة الغلو، ومثل هذا يحصل كذلك لمن يقع في بدعة الإرجاء.

وقد أشار النبي ﷺ لأسباب الغلو النفسية والعلمية، وذلك كما في قوله في الصحيح: «حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلامِ».

وقوله: «حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ» وصف للعمر، وهو كذلك وصف لحداثة العهد بالعلم والدين.

وأما «سُفَهَاءُ الأَحْلامِ» فالمراد به طيش الرأي ورداءة العقل والفكر، وسبب ذلك فساد النفس، إذ نوازع النفس لها سلطان نافذ على طرائق التفكير، تطغى عليها لتجنح بها إلى أهوائها وشهواتها، ولهذا نهى النبي ﷺ عن القضاء حال الغضب، وأسقط الطلاق حال الإغلاق، لأن غضب النفس يُغلق العقل ويفسده، فإن كان الغضب مؤقتاً كان إغلاق العقل مؤقتاً، وإن كانت النفس حادة غاضبة بطبعها أثَّر

ذلك في كفاءة العقل مطلقاً، ولهذا ذكر الله ضلال صاحب العلم بسبب تمكن أهواء نفسه منه، كما في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

والناظر في حال الغلاة والخوارج يرى وصف النبي ﷺ: «حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلامِ» متحققاً فيهم، ومثاله من خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلم يكن منهم أحد من أصحاب النبي ﷺ ولا ممن تربى على يديه، وإنما كانوا من حديثي الإسلام، ولهذا لما ناظرهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كان مما قاله لهم: (وهؤلاء أصحاب النبي ﷺ لبس فيكم منهم أحد).

وهكذا الخوارج على مدار التاريخ، ليس فيهم أحد من الراسخين في العلم والدين، ولا ممن خضعت نفسه للتربية والتزكية وفق المنهج القرآني[1]، لا في زمن الصحابة ولا التابعين ولا غيرهم؛ إلى يومنا هذا.

وقد أكثر الناس الحديث عن أسباب الغلو المتعلقة بباب الجهل بالعلم والخلل في الفكر، لكنهم أهملوا جانب الدوافع النفسية، وهذا نقص في معالجة المسألة، وذلك أن جميع أسباب الغلو مردها إلى النوازع النفسية المنحرفة، إذ الغلو فساد في النفس قبل أن يكون انحرافاً في الفكر والسلوك، وهناك من يعالج الغلو على خلاف ذلك، فيجعل منشأه ضلال الفكر الذي يتبعه فساد السلوك وانحراف النفس، وليس هذا بصحيح، وذلك أنه لولا فساد النفس وانحراف نوازعها ما جنح صاحبها لمثل هذه الأفكار الضالة والمسالك العوجاء، إذ النفس محرك للعقل الذي هو وعاء الفكر، وأما

[1] ينبغي التفريق بين تربية النفس التي يفتقدها الخوارج وأهل الغلو والتنطع، وبين عبادات الجوارح والنسك التي قد يكون لهم النصيب الأوفر منها كما شهد لهم بذلك النبي ﷺ، وهو مما يتوافق مع توهم الهداية والإقبال على الدين والطاعة، وسيأتي الحديث عنه.

هي فوعاء الطبائع والنوازع والمشاعر، والنفس والعقل[1] يجتمعان في تحريك البدن لفعل السلوك.

فالنفس هي الأصل، وأما الفكر والسلوك فتابعان لها[2]، وأفكار الغلو والتنطع لا يقبلها إلا عقل تقوده نفس فاسدة تحمل نوازع ورغبات منحرفة، وأما النفس السوية فتمُجُّ مثل هذه الأفكار القبيحة وتنفر منها، بل ربما يصح القول أنه ما من فكر ضال

---

(١) ليس العقل عضواً مستقلاً في الإنسان منفصلاً عن النفس مقابلاً لها، بل هو أحد ملكات النفس وخصائصها، فكما أن النفس تحس وتشعر فهي كذلك تعقل وتفكر، ودليل ذلك أن الله لم يذكر العقل ولا خَلْقَهُ في القرآن قط، وإنما ذكر أفعاله، كما في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۝٩٨﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٤﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وأما النفس فذكرها وذكر خلقها وخصائصها، كما في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾، وغير ذلك من الآيات، وإدراك أن العقل القائم بالتفكير ملكة من ملكات النفس يفسر سبب ضلاله حال فسادها وانحرافها، إذ النفس فيها نوازع وملكات مختلفة، إن طغت أحدها أو بعضها أفسدت الأخرى وحرفتها، وربما عطلتها، فبعض الناس يطغى لديهم جانب العقل فيتجردون من نوازع العاطفة، وبعضهم على العكس تطغى لديهم النوازع والشهوات فيضل العقل، والصحيح الاعتدال والموازنة بين هذه الملكات المختلفة التي وهبها الله للنفس البشرية.

وللتفصيل في فهم طبيعة النفس وماهيتها يُنصح بقراءة كتاب "ماهية النفس" للشيخ أحمد كرار الشنقيطي رحمه الله، وهو كتاب قيّم فريد في بابه، وإن كان بحثه مقتصراً على ماهية النفس دون البحث في الدوافع النفسية للسلوك البشري.

(٢) قد يتقدم انحراف العقل وضلاله على فساد السلوك، وقد يحصل العكس، فيقوم الإنسان بفعل الجريمة، ثم يستدعي العقل للتدليل على صحة فعله، وعلى أي الحالين فإن الفساد والانحراف نشأ في النفس أولاً، ولهذا كان أصل الدين تنشئة الإيمان وترسيخه في النفس والقلب ابتداء مع تطهيرهما من الكفر والشرك، ثم يتبعه قول اللسان وعمل الجوارح؛ وهو السلوك.

إلا وسببه نفس منحرفة[1]، ودليل ذلك أن الله قرن بين ضلال العقل وهوى النفس، وقدَّم هوى النفس على ضلال العقل، كما في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فلما فسدت النفس ضل العقل معها ولم ينتفع بما يحمله من علم، فتبع ذلك انحراف السلوك، بل ربما كان ذلك العلم سبباً في زيادة ضلاله، لأن النفس تجنح لما تشتهيه منه[2].

ولهذا لا يصح تفكير المرء ولا ينتفع بعلمه إلا إذا صلحت نفسه، ولهذا جاء القرآن بتهذيب النفس وتزكيتها في مواضع كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]، وغير ذلك من الآيات، ولم يأت بذلك مع العقل، وإنما جاء بإعماله وإطلاقه، وهذا لا يكون إلا مع صلاح النفس، وهذا يستوي فيه الشاب الصغير والرجل الكبير والشيخ العجوز، كما يستوي فيه العامي الجاهل وحامل العلم.

---

[1] وهذا يختلف عن فعل الذنوب والمعاصي التي تدخل في باب السلوكيات المنحرفة، ولكن سببها –غالباً– ضعف النفس وليس انحرافها، وفي بعض الأحوال يكون سببها انحراف النفس.

[2] وهذا يفسر توجه كثير من كبار المختصين بالعلوم الفلكية والكونية والمشار إليهم بالبنان في هذا المجال إلى الإلحاد، مع كون النظر في الكون مما يقوي الإيمان ويرسخه في النفس، كما قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥]، فلما نظر إبراهيم عليه السلام في الكون قويَ إيمانه، وذلك لصلاح نفسه، بينما لم يؤثر هذا النظر في كثير من الفلكيين والكونيين في زماننا، وذلك لفساد نفوسهم، بل ازداد بعضهم كفراً وإلحاداً، وصدق الله حيث قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

وهذا يفسر سبب إقبال البعض على مسلك الغلو والخارجية رغم كثرة تحصيلهم العلمي[1]، ونفور البعض منه رغم قلة زادهم العلمي، فالأمر ليس أمر عقول وعلوم، بل هو أمر نفوس ونوازع، إما مهتدية وإما منحرفة.

وبيان ذلك أنه لو عُرِضَت أفكار الغلو الضالة على اثنين من الجهال، فقد يقبلها أحدهما ويرفضها الآخر، وكلاهما على نفس القدر من الجهل، لكن أحدهما نفسه سوية تمجُّ مثل هذه الأفكار التي تتناقض مع فطرتها السليمة، والآخر نفسه منحرفة تتقبل مثل الأفكار الضالة وتجنح لها، وهذا داخل في أسباب الهداية الربانية وضدها.

ولهذا فالصحيح أن علاج الغلو يكون بعلاج فساد النفس قبل فساد الفكر والرأي، وكل محاولة لعلاج الغلو والتنطع بالتركيز على جانب العلم والفكر وإهمال الجانب النفسي هي محاولة قاصرة غير محققة لمقاصدها، وهذا ليس تقليلاً من شأن العلم، فلا شك أن له دوراً عظيماً في معالجة انحراف الفكر ودفع الجهل والضلال عن الناس، لكنه يأتي بعد علاج انحراف النفس.

فالمراد من هذه الرسالة هو توجيه النظر لمنشأ الانحراف وسبب الضلال الحقيقي ليتم علاجه قبل غيره، إذ النفس المتنطعة حين يُعرض عليها العلم الصحيح فإنها لا تراه سوى شبهات في طريق الحق.

وما لم يتجه العلماء وطلبة العلم على وجه العموم والجماعات المجاهدة على وجه الخصوص لدراسة الأسباب النفسية الحقيقية لنشأة الغلو، وصياغة مناهج تربية إسلامية جديدة تُعنى بمعالجة هذه الأسباب على وجه صحيح، فلن تستفيد الأمة من نكباتها وتجاربها المريرة، وسنرى تكراراً لظهور الغلو والخارجية وإعمال السيف في الأمة؛ لا في عدوها، ومن هنا تأتي أهمية دراسة الدوافع النفسية للغلو، والتي تأتي هذه الرسالة في سياق محاولة طرق هذا الباب وإثارة المسألة للبحث والنقاش والمدارسة.

---

[1] ومثل هذا في إقبال بعض طلبة العلم على مسلك الإرجاء وتطويع الشريعة للطواغيت.

❖ **طبيعة النفس البشرية.**

خلق الله النفس البشرية وأودع فيها صفات ونوازع وغرائز محددة؛ هي الفطرة، وهي بحاجة للإشباع وفق مسلك صحيح متوازن ينفعها ولا يضرها، وهذه النفس تخوض معترك الحياة فتتعرض لمؤثرات خارجية كثيرة، تتأثر بها، بوعي أو دون وعي، فإما أن تكون مؤثرات خير تُشبِع هذه النوازع والغرائز الفطرية إشباعاً صِحيًّاً معتدلاً فترتقي بها، أو مؤثرات شر تحرفها عن سويتها، ومؤثرات الشر إما أن تكون على الضد من نوازع الفطرة السليمة، أو تكون إشباعاً زائداً أو ناقصاً لهذه النوازع والغرائز الفطرية.

والمؤثرات خيراً كانت أو شراً، إما أن تتعرض لها النفس لفترة مؤقتة، أو تتعرض لها لفترة طويلة أو دائمة، فإن كان التعرض مؤقتاً وذهب المؤثر سريعاً، فإن النفس تتأثر به لكنه لا يغير -غالباً- من طبعها[(١)]، أما إذا طال فإنه يغير -غالباً- من طبعها[(٢)]، فإما يرتقي بها إلى الخير والصلاح، أو يُوطِّنها على الشر والفساد، وبذلك تتكون شخصيات الناس، بين مؤثرات الخير ومؤثرات الشر.

---

(١) يختلف الأمر مع الصدمات العنيفة، فالصدمة تكون سريعة الوقوع عميقة التأثير، وهي رغم كونها مؤثراً سريعاً لكنها تُحدِث تغييراً كلياً في الصفات النفسية للإنسان، وهذا يفسر سر تحول البعض من الصفة لنقيضها في لحظة، كتحول البعض لقمة الإيمان سريعاً، كما نرى في بعض نماذج الصحابة وغيرهم، ومثل ذلك في الشر -والغلاة يستعملون أسلوب الصدمة في نشر عقائدهم كما سيأتي-، لكن هذه حالات استثنائية على غير الأصل، لأن تعرض النفوس للصدمات ليس هو الأصل في سنة الحياة، مع اعتبار أن بعض الصدمات قد تؤثر في بعض النفوس ولا تؤثر في بعضها الآخر، وربما أثرت الصدمة في نفس الإنسان في موقف ولم تؤثر فيه في موقف آخر، وهذا يكون بحسب طبيعة النفس ومستوى إدراكها وحالتها الشعورية لدى استقبالها للصدمة.

(٢) إذا طال المؤثر وكان استقبال النفس له سطحياً غير عميق فإنه لا يغير من طبعها في الغالب.

وحين تتعرض النفس لمؤثرات الشر تلجأ -دون وعي منها- لما يسميه المتخصصون بالخطوط الدفاعية أو الحيل النفسية، وتلجأ كذلك لردود الفعل النفسية، فإن ذهب المؤثر سريعاً ذهبت الحيلة ورد الفعل، وإن طال المؤثر على النفس طال استعمالها للحيل واتخاذها لردود الفعل حتى تصبح طابعاً أصيلاً متجذراً فيها، فتنشأ نتيجة لذلك الانحرافات النفسية[١]، والتي تنصاع لها النفس انصياعاً كاملاً لا شعورياً، حتى إنها -أي الانحرافات- تتحكم في مشاعر الإنسان وطرائق تفكيره، وهكذا تتكون الشخصيات المنحرفة دون أن يشعر أصحابها أن نفوسهم قد انحرفت وانتكست، بل يظنون أنهم لازالوا على فطرتهم السليمة دون مؤثرات أو انحرافات.

والنفس تنمو وتتطور مع الإنسان منذ ولادته وإلى وفاته؛ بما فيها من صفات ونوازع ورغبات، سواء كانت معتدلة فطرية أو منحرفة مكتسبة، فتتضخم بعض هذه النوازع وينزوي بعضها ويتوسط بعضها، وبعض الصفات تلازم صاحبها ولا تنفك عنه، وبعضها قد تنفك عنه أو تتغير، وقد يكون التغير كلياً أو جزئياً، والجزئي قد يكون كبيراً أو متوسطاً أو صغيراً، وكل ذلك بحسب ما يتعرض له في حياته من مواقف مؤثرة في نفسه.

وهذا يعرفه المختصون بهذا الباب من العلم، والتفصيل فيه يطول، ونكتفي بالإجمال الذي يقتضيه المقام.

---

[١] يسميها البعض بـ "العقد النفسية".

❖ **الواقع المعاصر وأثره الفاسد على النفس.**

تعاني الأمة المسلمة المكلومة في واقعها المعاصر الأليم الذي تعيشه من تسلط طغاة مجرمين، يستلذون بتعذيب الناس وإذلالهم وإهانتهم وقهرهم وظلمهم وإحالة حياتهم جحيماً، فينشأ المرء ليرى نفسه وسط حياة مليئة بالقهر والقمع والظلم والكبت والذل وشظف العيش وقلة ذات اليد، ويرى انعدام الرحمة والشفقة عند أولئك الطغاة، بل إنه ليرى فيهم الوحشية والإجرام والتكبر والتجبر؛ والتلذذ بذلك، يرى حرباً له في قوت يومه، وذلاً ومهانة لأجل ورقة رسمية، يرى نفسه غريباً في مجتمع ليس له فيه أي قيمة أو حقوق، ويرى نتيجة ذلك تفككاً مجتمعياً وغياباً للتكاتف والتعاضد بين الناس، وهذا أمر توارثته الأجيال المسلمة عبر عقود متتالية حتى أصبح طابعاً عاماً لحياتهم في مختلف البلدان.

ولا يَبعُد عن ذلك حال المسلمين المقيمين في بلاد الغرب، فسواء كانوا من أبناء البلاد الأصليين، أو من المشردين الهاربين من جحيم بلادهم، ليعيشوا حياة الغُربة ومآسيها الأليمة، فكلهم يعاني من مأساة عداوة المجتمعات الغربية الكافرة ونبذها لهم، واستلاب حقوقهم المعنوية، فالمشرد اللاجئ في بلاد الغرب يعاني مأساتين؛ مأساة الغربة ومأساة الاضطهاد.

والله ﷻ حين خلق النفس لم يخلقها لمثل هكذا حياة، وإنما خلقها لتحيا حياة هادئة مستقرة بعيدة عن القهر والظلم والقمع والكبت والإذلال، وحين تتعرض النفس لمثل هذه المواقف، وتتحول بالنسبة لها إلى نمط حياة لا تقدر على دفعه، فإنها تتأذى منه وتشرع في اتخاذ ردود فعل وحيل دفاعية معينة تتناسب مع مؤثرات الشر التي تتعرض لها، فينشأ داخلها انحرافات نفسية مختلفة، من أبرزها رغبة داخلية جامحة

في الانتقام[1]، تنشأ وتتجذر وتترسخ وتنمو في مساحة اللاوعي لهذه النفس، ولأنها دفينة في لاوعي الإنسان وعقله الباطن فإنها تكون رغبة غير واعية، لا تعرف ممن تنتقم، كما لا تدرك كيف ولماذا تريد أن تنتقم، لكنها تَتُوقُ وتتعطش –لا شعورياً– لهذا الانتقام الدفين في أعماقها.

هذا هو الجو النفسي الذي يعيشه الناس في المجتمع، مما ينعكس على حياتهم وتعاملاتهم اليومية[2]، وهذا يفسر الكثير من الظواهر العدوانية داخل المجتمعات المسلمة، والتي لا يدرك أصحابها أنفسهم لماذا تطبعوا على هذه الصفات والسمات الشخصية.

ولهذا نرى سرعة الغضب، وعدوانية السلوك في حياة الناس، وهذا له أمثلة كثيرة، من أهمها الطرق والأساليب الخاطئة التي يسلكها الآباء في تربية أبنائهم، وكذلك المعلمون والمربون في تربية طلابهم، إذ يعتمد أكثرهم على التربية الجافة القاسية المفسدة للنشء، والتي يظهر فيها الإسراف في العقوبة وتجاوز الحد المعقول في ذلك، ويغلب على عقوبات بعضهم طابع الانتقام لا التأديب، وهذا سببه ما يعانيه أولئك

---

[1] وتكون قوتها بحسب قوة القهر والقمع والظلم الذي تعرضت له هذه النفس وتأثرت به، أي أنها رغبة نسبية تختلف من شخص لآخر.

[2] يتفاوت الناس في نصيبهم من ذلك، وهذا يرجع لاعتبارات مختلفة؛ منها: درجة تعرض كل فرد لهذه المؤثرات، ومدى استعداده النفسي لاستقبالها والتعامل معها، وكذلك نوع الصفات والنوازع الأخرى التي تطبعت عليها نفسه، ومدى تمكنها منه وقابليتها للانسجام مع مثل هذه المؤثرات أو نفورها منها، فإن كانت قابليتها قوية، كان تأثر النفس بها شديداً وسريعاً، والعكس بالعكس، فمثلاً لو كان الإنسان مكتسباً لبعض صفات الكبر والعجب والغرور كانت نفسه قابلة للانسجام مع رغبة الانتقام، فيكون الاستقبال لأسبابها قوياً والتأثر سريعاً وعميقاً، أما إن كانت النفس متحلية بصفات التواضع والحلم والحياء وحب الخير وغيرها من الصفات الحميدة لم تكن هذه النفس قابلة لاكتساب نوازع الانتقام، بل يكون تأثرها بأسبابها ضعيفاً، ويقاس على ذلك.

الآباء والمعلمون والمربون من قهر الحياة تحت استعباد الطغاة، ونتيجته تطبيع نفوس الأبناء على نوازع سلبية مختلفة، كالعناد أو الخجل أو العدائية أو رغبة الانتقام أو غير ذلك من صفات ذميمة، وهكذا ينشأ المرء في مثل هذا المناخ الفاسد ليجد نفسه تتطبع على هذه النوازع المنحرفة، دون أن يدرك ذلك أو ينتبه له.

ولعل ما ذكرناه يفسر سبب الرواج الشديد لكل ما يغذي العنف في حياة الناس، كألعاب وأفلام العنف، ورياضات القتال العنيفة، كالمصارعة وغيرها، والمصارعة وإن وجدت منذ القدم، إلا أنها لم تكن على الصورة التي نراها اليوم من العنف الشديد، ولم يكن لها مثل هذا الرواج الكبير بين الناس، كما هو حالنا اليوم.

وسبب رواج مثل هذه الألعاب والأفلام والرياضات العنيفة في بلادنا أنها تغذي نوازع الانتقام المتولدة عن واقع القهر والقمع الذي يعيشه الناس تحت حكم الأنظمة الاستبدادية.

❖ **استدراك: مؤثرات أخرى على النفس.**

لا شك أن القهر والظلم والقمع ليس هو المؤثر الوحيد الذي يتعرض له الإنسان في حياته ويؤثر في تكوين نفسه وشخصيته، فهناك مؤثرات أخرى يتعرض لها، بدرجات ونسب متفاوتة، وهذه المؤثرات قد يكون بعضها خيراً وبعضها شراً، وبعضها قد تتقبله النفس وتتشربه باعتبار ما تحمله من نوازع وطبائع مكتسبة تتوافق مع هذه المؤثرات وتنسجم معها، وبعضها قد تنفر منه وترفضه بسبب تضاد نوازعها وطبائعها المكتسبة مع هذه المؤثرات، وبعض ما تتقبله النفس من مؤثرات قد يؤثر في شهوة الانتقام بالزيادة أو النقص.

وتختلف درجة تقبل النفس ورفضها للمؤثرات الخارجية من شخص لآخر، فتجتمع هذه المؤثرات جميعاً حتى تنتج شخصية معينة ذات طبائع وصفات محددة؛ يراها الناس ويتعاملون معها، فتؤثر فيهم ويؤثرون فيها، وهكذا في دورة حياة مكتملة.

ولا شك كذلك أن الباب الصحيح للنظر في النفس البشرية ليس هو باب الانحرافات والعقد النفسية، ولا هو باب نزعة الانتقام، لكنها -أي نزعة الانتقام- الأهم لنا في بحث مسألة الغلو وأسبابها ودوافعها، إذ هي أحد أهم أسباب نشأة الغلو في واقعنا المعاصر -والله أعلم-، ولذا لابد في هذه الرسالة من التركيز على هذا الجانب، لأننا نبحث النفس المنحرفة للغلو والتنطع ولا نبحث النفس السُّنِّيَّة السوية.

❖ الدوافع النفسية للغلو وآثارها الفكرية والسلوكية.

للغلو دوافع نفسية متعددة، تختلف باختلاف الناس وأحوالهم، نذكر منها:

١- نزعة الانتقام:

ومنها ينشأ الغلو المعاصر، من هذه الرغبة المتعطشة في الانتقام، الانتقام من كل شيء، فنرى أناساً من هذه الأمة، في أعماق نفوسهم غضب كبير لا يدركونه، ورغبة عارمة في الانتقام لا يشعرون بها على حقيقتها، ولا يدركون أسبابها، لكنها تتحكم فيهم وتدفعهم بقوة قاهرة لكل ما يغذي هذه الشهوة .. شهوة الانتقام والتشفي!.

وهذه الشهوة المنحرفة تظهر على هيئة أفكار وسلوكيات فاسدة، منها:

الانجذاب نحو الغلو، والميل للرأي الأشدِّ دون الأسدِّ، والمسارعة في التكفير والاستمتاع به، وكراهة إعذار الناس، وحب تصيد أخطائهم وتضخيمها، والاندفاع إلى كل ما فيه معاقبة للناس والمجتمعات والتسلط عليهم، كما نرى كثيراً من الشباب يميلون لتغيير المنكر وإزالته بالقوة المفرطة، وتعزير فاعله بأشنع العقوبات وأقساها، والرغبة في إهانته أمام الناس، ولا يحبون إقامة الشريعة إلا وفق هذه الطريقة المنحرفة المخالفة لمنهج النبي ﷺ وصحابته الكرام، ويعتنقون الأفكار المغذية لهذه السلوكيات.

ويرى صاحب هذه النفسية المنحرفة أنه إنما يفعل ذلك ديناً، والحقيقة أنه إنما يفعله استجابة لشهوة نفس غاضبة وحب انتقام دفين!.

ومن الآثار السلوكية لهذه النوازع المنحرفة كذلك:

حب الخصومات وتتبعها والمسارعة فيها والاستمتاع بها، ويدخل فيها حب الردود وتتبعها وحب الجدل والانتصار على الخصم والشماتة فيه؛ لا حب هدايته ولا حب الوصول للحق كما كان حال النبي ﷺ والسلف الصالح، والإكثار من الطعن في دين الناس، وحب الهمز واللمز والقيل والقال والغيبة والنميمة والسخرية والاستهزاء، وغير ذلك من شهوات نفوس مريضة تستمتع بها حين تمارسها، وهي تظن –واهمة– أنها لذة الطاعة والهداية!.

وأصحاب هذه النفوس المريضة لا يحبون الرحمة، ولا التيسير على الناس، فهم على الضد مما جاءت به الشريعة، إذ نفوسهم منحرفة وليست سنية.

وهذه السلوكيات وإن اشتركت نوازع نفسية أخرى في إنتاج بعضها، كالكبر والعجب والتعالي والغرور، لكن دافع الانتقام ينتجها كذلك إن تهيأت الأسباب والظروف المناسبة، وهي كثيرة في واقعنا.

وإذا اعتنق صاحب هذه النفسية المريضة تلك الأفكار الفاسدة ومارس السلوكيات المجرمة وحقق إشباع نوازعه ونزواته المنحرفة، لم تكتفِ نفسه بذلك، بل يزداد تضخم هذه النوازع والرغبات الفاسدة فيها، وتَتُوق وتتعطش للمزيد منها، فيزداد صاحبها إقبالاً على المزيد من الفكر المنحرف والسلوكيات المجرمة، ويزداد تبعاً لذلك تضخم النوازع فيها، فتطلب المزيد من الفكر والسلوك المغذي لها، وهكذا يدور في حلقة مغلقة من التغذية المتبادلة، لا يتمكن من الانفكاك عنها، فالنوازع تغذي الفكر والسلوك، وكذلك العكس، حتى يصل لمرحلة السُّعار الجنوني[١] التي نراها اليوم من الخوارج ويَعجب البعض منها ولا يعرفون سببها.

ولهذا يُكفِّر الخوارج بعضهم بعضاً ويقتتلون فيما بينهم[٢]، وسبب ذلك ليس الأدلة الشرعية، ولكن لأنهم يعيشون سباقاً لا ينتهي لسعار جنوني، وهم لشدة

---

[١] وهم في هذه الحالة يشبهون الكلاب المسعورة، ولهذا كان أبلغ وأدق وصف لهم هو وصف النبي ﷺ: «كِلابُ أَهْلِ النَّارِ».

[٢] وهذا يحصل لمن أغرقوا في مستنقع الخارجية وأُشربت قلوبهم هذه البدعة المارقة، وكانوا في أرض حرب وقتال، أما إن كانوا في غير أرض حرب وقتال، وكذلك من لازالوا على عتبات الغلو وفي أول طريقه، ولم يصلوا لقاعه ولا للدركات السفلى من الخارجية بعد، فإنهم ينتقمون من بعضهم البعض بغير القتل، فيسارعون في الخصومة عند الاختلاف، ويقع بينهم السب والشتم والذم

مرضهم لا يحتملون تفاوت حالة السعار بينهم، فكلما ازدادت مجموعة منهم في سعار الانتقام كلما رأت من هم أقل منها سعاراً أرضاً خصبة لإشباع نزواتها المريضة، وانطلقت لتنفيذ أفكارها وسلوكها عليهم، وإن كانوا من نفس جماعتها، وعلى نفس طريقتها، وإذا رأت من هو أعلى منها في سباق السعار الجنوني نفرت منه واعتبرته مغالياً، ثم قد تصبح يوماً على طريقته وزيادة!.

ولهذا لم يكن للخوارج يوماً إلا علاج واحد أرشدنا إليه النبي ﷺ، وذلك في قوله كما في البخاري ومسلم وغيرهما: ﴿أينما لقيتموهم فاقتلوهم﴾، وقوله: ﴿لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد﴾، أي قتل إبادة واستئصال وإفناء، وذلك لأن فساد نفوسهم قد حاز مرتبة لا يمكن علاجها بحال، ولو كان هناك علاج أصح منه لأرشدنا إليه النبي ﷺ، إذ ما من خير إلا ودلنا عليه، وما من أمر دلنا عليه إلا وهو خير، وليس هناك من خير لم يدلنا عليه.

وهذه الآثار الفاسدة لتلك النفسيات المنحرفة أظهر ما تكون في الخوارج، وإن لم يتفردوا بها، إذ لا يمتنع وجودها في غيرهم ممن هو واقع في شيء من الغلو وإن لم يصل لمرتبة الخارجية، بل يوجد بعضها في بعض المرجئة كما هو مشاهد، وهذا على تفاوت في النسب بين جميع هؤلاء.

كذلك فإننا نرى بعض الشباب المجاهد من أهل السنة يقع في بعض سلوكيات الغلو نتيجة استعداده النفسي لذلك، كالميل للتكفير والتسرع فيه، وحب التشديد

والتقبيح والتحقير والتضليل، وقد يقع التكفير بين بعضهم، فإن تمكنوا من الاقتتال اقتتلوا، والأمر في ذلك ليس على مرتبة واحدة، بل هي دركات متفاوتة.

مع ملاحظة أن ما ذكرناه ليس السبب الوحيد لوقوع التكفير والاقتتال بينهم، فهناك أسباب أخرى كما سيأتي.

وكراهية التيسير، وحب معاقبة المخطئ والعاصي وكراهية إعذاره أو الترفق به، وحب الجدل والهمز واللمز والطعن في دين الناس، والمسارعة في الخصومات وتتبعها والاستمتاع بها[1]، وغير ذلك من سلوكيات منحرفة هي نتاج مثل هذه النوازع النفسية الفاسدة، سواء كانت نوازع انتقام أو نوازع كبر وغرور أو غيرها، ثم هو كغيره يظن ذلك ديناً وعبادة.

٢- الكِبْر والاستعلاء:

وهو كذلك من النوازع النفسية الأصيلة الدافعة لسلوك سبيل الغلو والخارجية، وذلك أن المتكبر يرى نفسه أفضل من غيره ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، فهو قد عرف الحق وتمسك به بينما لازال الناس في تيه الباطل والضلال، وهو قد ذاق حلاوة الإيمان والتوحيد بينما الناس متخبطون في أودية الكفر والشرك، وهو قد عرف السنة بينما الناس غارقون في البدع، وهو قد أدرك الهدى بينما الناس لازالوا في غيهم يعمهون، وغير ذلك من صور تزكية النفس والاستعلاء بها على الغير.

ولعل دافع الكِبر والتعالي كان هو الدافع الأقوى والأبرز لخروج الخوارج في زمن علي رضي الله عنه، إذ لم يكن في مجتمع الصحابة رضي الله عنهم ما يدعو للانتقام الدافع للغلو كما هو في واقعنا، فمجتمعهم هو أفضل المجتمعات وأطهرها، ومن ثم فيترجح في واقعهم دافع الكبر والتعالي كسبب لخارجيتهم.

ومن الأدلة على ذلك ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْماً، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ -وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اعْدِلْ. فَقَالَ: ﴿وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟﴾،

[1] وهذا غاية في الظهور فيما نراه من مساجلات وخصومات بين الناس على شبكات التواصل الاجتماعي، فنرى ما يكتبه الناس من خصومات وردود وطعن وجدل يطير حتى يبلغ الآفاق في مدة قياسية، أما ما يُكتب من علم نافع فلا يهتم له إلا القليل.

قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ﴾. فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَقَالَ: ﴿دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ﴾. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ).

فهذا رجل بلغ به الكبر والاستعلاء وتزكية النفس أن يرى نفسه أعرف بالعدل وأكثر عملاً به من رسول الله ﷺ، وقد خرج الخوارج في زمن علي رضي الله عنه من ضئضيء هذا الرجل كما أخبر النبي ﷺ في بعض الروايات.

والكِبْر دركات، ونشأته في النفس مثقال ذرة، كما صح في مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال: ﴿لا يدخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ﴾، ثم يتضخم في النفس إلى ما لا نهاية، حتى يصل للتكبر على الله عز وجل، والعياذ بالله، كما فعل إبليس، فقد وصل به الكبر أن وضع عرشه على الماء، لأن الله كان عرشه على الماء، فهو لكِبره يريد أن يكون نداً لله الذي خلقه، وحين جادله في السجود لآدم عليه السلام تكلم بلسان المتكبر على ربه المعاند له، وكذا فعل فرعون وغيره من الطواغيت الذين حكى القرآن عنهم، وهكذا جميع الانحرافات النفسية في الإنسان، تنشأ في النفس مثقال ذرة ثم تتضخم إلى ما لا نهاية، ومنها نزعة الانتقام التي أشرنا إليها، فإنها تتضخم في النفس حتى تُخرِج الإنسان عن آدميته، وهذا مشاهد في الخوارج.

ولهذا حذر الله من مثقال ذرة الشر وحث على مثقال ذرة الخير، كما في قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَـرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[1] [الزلزلة: ٧ – ٨]، لأن هذه طبيعة النفس؛ البدء بمثقال ذرة ثم التضخم التراكمي، وهذا في نوازع الخير والشر على السواء.

والكبر وإن كان سبباً ودافعاً نفسياً للغلو، إلا أنه ما يلبث أن يتحول إلى رغبة عارمة في الانتقام، فهذا إبليس امتنع عن السجود لآدم كبراً وغروراً، كما قال الله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فلما عاقبه الله بالطرد من الجنة وحكم عليه بالكفر والخلود في جهنم إن لم يتب؛ امتلأت نفسه غلاً وحقداً، وسعى في الانتقام من آدم وذريته بجميع السبل، ولهذا طلب من الله إمهاله وتخليده في الدنيا، لا لأجل إتاحة الفرصة له لإصلاح نفسه وتهذيبها والتوبة مما فعله، وإنما لأجل الانتقام من آدم وذريته.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص: ٨٢] ..

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦ – ١٧] ..

فالغلو طريق أوله كبر وآخره حقد وانتقام، وهكذا كل طريق ضلال سببه الكبر، فإنه يبدأ به، ثم يتطور لينتقل بصاحبه إلى نزعة الانتقام المؤدية لسلوك سبيل الجريمة[2]، وذلك أن المتكبر يجد خصمه يأبى الخضوع والانصياع لكبره وغطرسته وغروره، ويعارضه ويقاومه في ذلك، فتضيق نفسه المتكبرة لذلك، ويسعى في الانتقام من هذا الخصم المعاند له.

---

[1] الآية وإن ذكرت العمل، لكن العمل والسلوك منشأه النفس بما فيها من خصائص وملكات كما ذكرنا، سواء كانت خصائص الرغبات والنوازع والشهوات أو خصائص العقل والتفكير.

[2] ولا يمتنع وجود أسباب أخرى غير الكِبر تدفع بالمرء للحقد والانتقام.

والناظر في القرآن يرى أن الله ﷻ قد قرن بين الكِبر والإجرام، وذلك في قوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وهذا نراه في الغلاة ونراه كذلك في الطغاة.

فالغلاة المتكبرون يرى أحدهم الدين على صورة ما، وغيره يعارضه في فهمه ويرفض التسليم له، فيأنف المغالي لكِبره من هذه المخالفة ويخاصم مخالفه، ثم ينتقم منه بتكفيره وقتله وذبحه والفتك به، وربما بذريته، بل وبمن يجاوره، وهذا نراه في التفجيرات التي يقوم بها الخوارج بين عموم المسلمين دون مراعاة لحرماتهم، ودون اعتبار لوجود النساء والأطفال.

والخوارج المجرمون في انتقامهم من ذرية خصومهم على نهج إبليس في الانتقام من ذرية آدم عليه السلام! .. ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢﴾ [الإسراء: ٦٢]، فعداوته مع آدم عليه السلام أن الله قد كرمه عليه، لكنه ذهب ينتقم من ذريته لا منه.

وقد يكون الرجل في نفسه كِبر وهو على السنة من جهة الفكر والاعتقاد، فإذا وقعت الخصومة بينه وبين مخالفه دخله الحقد ورغبة الانتقام، فتجنح نفسه للغلو فجوراً في الخصومة[1]، وهذا حصل ورآه الناس.

وكذلك الطغاة؛ فإن أحدهم يرى الحياة على صورة ما من النظام وطرق الحكم، ويرى الناس عكس ذلك، فيأنف الطاغية لكِبره من مخالفتهم له ويخاصمهم في ذلك، ثم يسعى للانتقام منهم، ولهذا نرى الطغاة ينتقمون من شعوبهم، ويعجب الناس لذلك.

[1] وربما جنحت نفسه للإرجاء أو لغير ذلك من مسالك البدعة والضلال، ومنهم من يرتكس بفجوره للكفر والردة عياذاً بالله.

وسبب إقدام الطغاة على الانتقام أن نفوسهم ضيقة لا تتسع لمخالفها، وهذه صفة يشترك فيها جميع المتكبرين، وعلى رأسهم إبليس، وإن اختلفت درجتها بينهم، كلٌّ بحسب ما أُشربت نفسه من نزعة الكبر المقيتة، ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله ﷿ عن قوم شعيب عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فلكِبرهم ضاقت نفوسهم عن أن يساكنهم شعيب عليه السلام ومن آمن به القرية التي يعيشون فيها.

ومن أبرز الأمثلة على تحول الطغاة إلى الحقد والانتقام والجريمة بسبب كبرهم؛ ما حكاه الله عن فرعون وما كان بينه وبين موسى عليه السلام، فقد أثبت الله لفرعون نزعة الكِبر كما في قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩]، ولهذا لما أتاه موسى عليه السلام ليدعوه للإيمان خاطبه خطاب المتكبر قائلاً: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨ - ١٩]، وجادل موسى في دينه، فلما لم ينقد له ضاقت نفس فرعون المتكبرة بموسى عليه السلام وحقد عليه وسعى للانتقام منه، فهدده قائلاً: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩]، ثم لما آمن السحرة قال لهم متكبراً: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]، ثم هددهم بالانتقام: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء: ٤٩]، وسبب هذا الإجرام هو الحقد والغيظ الذي يدفع المتكبر للانتقام، وقد أقر فرعون بذلك فقال كما حكى الله عنه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء: ٥٤ - ٥٥].

وليس معنى ذلك أن جميع الغلاة والخوارج في واقعنا قد انطلقوا من نزعة الكبر ثم تطورت معهم إلى الانتقام كنتيجة، فربما كان هذا موجوداً في بعضهم، وهو غالباً في رؤوسهم، لكن أكثرهم -والله أعلم- قد انطلقوا من نزعة الانتقام، ثم تضخمت لديهم[1]، وسبب ترجيح ذلك هو واقع المجتمعات المسلمة المعاصرة وما تعيشه من قهر وكبت وظلم وذل[2]، وهو واقع يدفع النفس إلى تشرب هذه النزعة دون وعي منها، إن اجتمعت لها ظروف وأحوال تعين على ذلك، وكانت في النفس نزعات أخرى تهيؤها لاستقبال دافع الانتقام والتطبع عليه، كما أشرنا في بداية هذه الرسالة.

ولئن كان الخوارج في زمن علي ﵁ قد انطلقوا من نزعة الكبر، فلا يلزم هذا في واقعنا، وذلك أن لكل واقع يعيشه الناس أحوالاً نفسية تناسبه، وهذا متقرر علماً وعقلاً، فأما واقعنا الذي نعيشه فلا يكون الكبر هو الدافع الأظهر للغلو، وإن كان سبباً ودافعاً نفسياً رئيساً للغلو، لكن لعل الدافع الأقوى هو نزعة الانتقام الحاقدة.

وذلك أن ثمة أفعالاً نراها من الغلاة والخوارج لا يفسرها الكبر، فالكبر -ومثله العجب والتعالي والغرور- يفسر الاستهزاء بالخصم وتحقيره وذمه والطعن في دينه، وقد يفسر تكفيره، لكنه لا يفسر مطلقاً الإسراف في القتل والمجازر الدموية التي نرى الخوارج يفعلونها، ولا يفسر التفنن في القتل بأبشع الأساليب، كالتفنن في الذبح والتحريق والتغريق وغيرها من الأساليب التي رأيناها من الخوارج في قتلهم لخصومهم من المسلمين والمجاهدين، وغيرها من الجرائم التي لا يمكن وصفها إلا بشهوة الدم!.

---

[1] ولعل هذا يفسر حالة السعار الجنوني التي يراها الناس منهم في سفك الدماء.

[2] وإن اختلفت درجة ذلك بين المجتمعات والشعوب، فليسوا جميعاً على مستوى واحد من القهر والقمع والذل، فمعاناة الشعب الفلسطيني مثلاً ليست كشعب الجزيرة العربية، وشعب المغرب ليس كشعب سوريا، وشعب تونس ليس كشعب السودان، وهكذا، لكن القهر قاسم مشترك بين جميع الشعوب المسلمة طالما كانت خاضعة لمنظومة الحكم الجبري.

٣- ضعف النفس وسلطة البيئة الغالبة:

وذلك أن بعض النفوس ضعيفة أمام الواقع وضغوطاته، وهذا طبع يغلب على العامة، فيسير أحدهم مع التيار مختاراً دون إعمال للعقل والنظر، وهذه هي سلطة البيئة الغالبة[١]، وهي سلطة لا تكون إلا على ضعفاء النفوس، وعلى هذا المعنى من يتجه للغلو تأثراً بأصحابه، وذلك بأن يكون في مجموعة من الناس اختاروا طريق الهداية أو الجهاد سوياً، أو اجتمعوا فيه وحصل بينهم تعارف وتآلف، فيذهب بعضهم للغلو ويلتحق بجماعات الخوارج، فيتبعه الآخرون كالقطيع دون تعقل أو تفكير، وسبب ذلك ضعف نفوسهم، فهي نفوس لا تملك القوة التي تؤهلها للتريث وصناعة القرار، وإنما هي نفوس تابعة لغيرها منساقة خلف مجتمعها، ومجتمعها هنا هو مجموعة الأصحاب المقربين.

ولهذا مدح النبي ﷺ قوة النفس، كما في مسلم وغيره: ﴿المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ﴾، ومدح غناها كذلك، كما في الصحيحين وغيرهما: ﴿لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ﴾، لأن النفس إذا قويت واغتنت استطاعت أن تضبط نوازعها وتتحكم فيها؛ لا العكس، فلا تنقاد إلا للحق.

والكلام في باب صناعة النفس القوية الغنية يطول، وخلاصته أن مدار تلك الصناعة على بناء الإيمان الصادق والعلم الصحيح النافع والحياء والحلم والعزة والكرامة والشجاعة، فإذا تطبعت النفس على هذه القيم الدينية والفطرية وترسخت فيها رسوخاً عميقاً استطاعت أن تتحكم في جميع شهواتها ونوازعها، فلم تنقد إلا للحق والسنة.

---

[١] ويدخل في معنى سلطة البيئة؛ سلطة الإعلام وسلطة الرأي العام والعقل الجمعي وسلطة الجماهير.

وضعف النفس وسلطة البيئة الغالبة يفسر ذهاب الكثيرين من شباب الأمة إلى جماعات الغلو والخارجية، تأثراً بذهاب أصحابهم ورفقائهم، وليس انطلاقاً من قناعات فكرية أو دوافع نفسية.

كما يفسر كذلك وجود أطفال وشباب صغار بين الغلاة والخوارج لم يعيشوا قهر وقمع الحكومات الطاغوتية حتى تنشأ فيهم نوازع الانتقام.

فهؤلاء الأطفال والشباب الصغير الناشئ وغيرهم من الكبار سناً لا نفساً يسهل استدراجهم للوقوع في مثل هذه الشراك الخبيثة، وذلك لأن نفوسهم لازالت صغيرة ضعيفة لم يكتمل نموها ولم تنضج بعد، أما من نضجت نفسه واكتمل نموها فإنه لا ينجر لمثل ذلك، وكذلك صاحب النفس الصغيرة غير الناضجة إذا وجد من يوجهه ويرشده ممن اكتملت نفسه ونضجت، وهذا على معنى ما يذكره بعض الأئمة أن من نعمة الله على طالب العلم أن يهديه في بداية طلبه لصاحب سنة، يتعلم ويتربى عليه.

وتفسير تحول هؤلاء الصبيان والصغار إلى التطبع بدوافع الغلو النفسية رغم عدم تعرضهم لما ينشئها في نفوسهم؛ أن النفوس تتأثر بالبيئة المحيطة بها، إذ الإنسان ابن بيئته كما هو معلوم، ومعلوم كذلك أن طبائع النفوس ونوازعها -خيرها وشرها- مُتعدية متنقلة في اللاشعور بين الناس، والنفوس يؤثر بعضها في بعض، وتتأثر بمن حولها، ولهذا أمر النبي ﷺ بلزوم الجليس الصالح، وألا يصاحب المرء إلا مؤمناً، ونهى عن جليس السوء، وعن الإقامة بين ظهراني المشركين، وذكر أن المرء على دين خليله وصاحبه، وهذا على معنى ما يقوله العامة: الصاحب ساحب.

وهؤلاء الصغار وغيرهم ممن لا يحملون نوازع الانتقام وإن كانت نفوسهم لم تتعرض لقهر الطغاة ولم تعايش ذل المجتمعات المسلمة، لكنها خالطت من تعرض لها، وكانت المخالطة في بيئة مغلقة منعزلة عن غيرها كما هو حال الخوارج في كل زمان ومكان، وهي أقوى أنواع المخالطة والمعاشرة، فأُشربت منهم تلك النوازع المنحرفة،

وساعد على ذلك تلقينهم الأفكار والسلوكيات التي تزيد من تقبل نفوسهم لتلك النوازع وتشربها لها، كما رأينا الخوارج وهم يعلمون أطفالهم وصبيانهم ممن هم في عمر الحُلم أو دونه سلوكيات الذبح والقتل والتفجير، وهكذا تنتقل دوافع الغلو والإجرام النفسية لهم.

وهذا الدافع يفسر كذلك وجود نماذج يعرفها الناس لشباب خجول لا يعرف الشر ولا الانتقام، ومع ذلك التحق بالغلاة والخوارج وشاركهم سلوكهم المجرم.

وهذا أمر عَجِبَ منه البعض، ومثل هذا يزول إشكاله بفهم الخجل وتحولاته في نفس الإنسان، فالخجل هو صفة مَرضية مكتسبة، على خلاف الفطرة، وهو أحد مظاهر ضعف النفس، وصورته حالة انطوائية تعيشها النفس تتمثل في شيء من الانكفاء على الذات، وسببه فقدان جزئي أو كلي للثقة بالنفس، ولهذا يكون الخجل جزئياً أو كلياً، ويُعالَج بتدريب النفس على استعادة الثقة بذاتها؛ بتدرج واعتدال وتوازن، وهذا باب من العلم له أهله ومختصوه، فإن تعرضت النفس لزيادة مُخلَّة في جانب إشباع الثقة، أصابتها ردة فعل عكسية تؤول بها إلى الكبر والعجب والغرور والعناد، وتكون درجة رد الفعل بقدر درجة الزيادة في الإشباع، فإن تطبعت النفس على هذه الصفات العكسية تهيأت لاستقبال شهوة الانتقام وأمكنها التطبع عليها[1]، ولو لم تتعرض في حياتها لما يدفعها للانتقام، فهي تستقبل هذه الصفة وتتطبع عليها من بيئة الغلو المحيطة بها.

وبيئة الغلو توفر للخجول فرصة التخلص من خجله، لكنه تخلص مريض غير صحيح، فهي معالجة للمرض بمرض، إذ النفس هنا لا تتدرب على استعادة الثقة بطريقة متوازنة ومعتدلة، بل تنقض بكل قوة وعنف على حاجز الخجل لتدمره وتتجاوزه إلى غيره، ولأنها مدفوعة بقوة انطلاق عنيفة تتناسب مع عمق تجذر الخجل

---

[1] وذلك أن نزعة الكبر تهيئ النفس لاستقبال نزعة الانتقام كما ذكرنا.

فيها، فإنها لا تتوقف حتى تجد نفسها قد سقطت على الجانب الآخر، حيث الكبر والعجب والتعالي، وهذا كله يحصل في اللاوعي لدى الإنسان، فلا يدرك نفسه إلا وقد انتقل من حال إلى نقيضه، وهذا بخلاف ما لو كُسِر ذلك الحاجز بطريقة صحيحة ودون اندفاع أعمى، فإن النفس في هذه الحالة لا تندفع إلى الجانب الآخر، بل تقف هادئة على خط التوسط والتوازن والاعتدال.

وهنا يظهر الفارق بين المعالجة الصحيحة للخجل في بيئة سنية، وبين المعالجة العمياء له في بيئة مجرمة كبيئة الغلو، وهذا يفسر تحول شباب كُثُر من خجل انطوائي ظاهر عليهم وأدب ملاحظ فيهم إلى غلاة خوارج مجرمين سفاكين للدماء، وهو ما حار البعض في فهمه وتفسيره.

- ولعل ما ذكرناه في هذه الدوافع يفسر أمراً أشكل على البعض فهمه، وهو:

كيف لهذا الشاب الحدث المولع باللهو والانسياق خلف المعاصي ومتع الدنيا وملذاتها المختلفة، والمنشغل باللهو واللغو واللعب وسماع الأغاني ومغازلة الفتيات والبحث عن المال .. كيف به إذا أراد يوماً سلوك سبيل الهداية أن يسلك هذا الطريق الأعوج، وهو الذي لم يعرف الجريمة أو القتل في حياته يوماً؟.

أهي قوة الإيمان لاقت فكراً منحرفاً وفهماً فاسداً فأمدته بالشجاعة والاستبسال في القتال، وربما تفجير نفسه بين المسلمين!.

فإن كانت قوة الإيمان، فكيف وصل لهذه المرتبة منها في زمن يسير؟!.

ليست هي قوة الإيمان يقيناً، وإنما هي إحدى أو بعض نوازع الغلو الكامنة في النفس[1]، لاقت أفكاراً وسلوكيات تغذي شهواتها المنحرفة، فانجذبت إليها مندفعة

[1] المقصود بالشهوات الكامنة في النفس تلك المختبئة في لاوعي الإنسان، والتي تظهر عند استثارتها، وذلك كشهوة الجنس بالنسبة للبالغ، فإن الطفل إذا بلغ نشأت في نفسه شهوة الجنس -ولم تكن فيه من قبل-، لكنه لا يدركها ولا يشعر بها، وربما رأى النساء فلم يتأثر، فإذا تعرض لما

بكل قوتها النفسية[1]، حتى أُشربتها وتشبعت بها، ووجدت فيها غذاءها النفسي الممتع، وإشباع رغباتها ونزواتها، فتغلغلت هذه الأفكار فيها وسيطرت عليها وتمكنت منها تمكناً كاملاً، فأقبلت على ممارسة السلوكيات المحرمة المشبعة لها، واهمة أنها مقبلة على الدين والإيمان والطاعة.

يستثير هذه الشهوة الكامنة في نفسه ظهرت وخرجت وأنتجت السلوك، فإما يطلب الزواج أو يطلب الشهوة الحرام، ومثل ذلك دوافع الغلو الكامنة في النفس، من نوازع كبر أو انتقام أو غير ذلك، فإنها تكون مختبئة في لاوعي الإنسان، ثم تظهر عند استثارتها، ومما يستثيرها أفكار وسلوك الغلو، ولهذا إذا لم تكن هذه الشهوات موجودة في نفس الإنسان ابتداء لم يتقبل أفكار الغلو وسلوكياته كما أشرنا، إذ النفس لا تنجذب إلا لما يشبع نوازعها من فكر وسلوك.

[1] القوة النفسية أشد –غالباً– من القوة البدنية.

❖ **النوازع المنحرفة وتوهم التدين.**

والنفس حين يعتريها مثل هذا الخلل يغلب عليها التوهم، فترى الانتقام النفسي وتفريغ الانفعالات غضباً لله، والجمود والعناد ثباتاً على الحق، والطعن في دين الناس صدعاً بالحق، وسوء الظن حنكة وبصيرة، وسوء الأدب في الحديث قياماً لله وعدم خشية لومة لائم فيه، والتشهير بالناس وفضحهم أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وغير ذلك من حالات التوهم النفسي التي يقع فيها أصحاب مثل هذه الأمراض الخبيثة[١]، فيخلطون بين نزوات نفوسهم وأوامر ربهم .. نسأل الله لنا ولهم العافية.

وأصل ذلك أن يُعلَمَ أن النفس تَتُوقُ وتتعطش لما يُشبع نوازعها من أفكار وسلوك، فإذا لاقت تلك الأفكار والسلوكيات المغذية لرغباتها جنحت لها دون وعي منها، وأقبلت عليها معتقدة أنها الحق والصواب، والحقيقة أنها شهوات ونزوات منحرفة، ولهذا كانت مجاهدة النفس من أعسر ما يكون كما قرر أئمة الإسلام.

ولهذا قال النبي ﷺ في أمثال هؤلاء: ﴿تَتَجَارَى بِهِمُ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، وَلا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلا مِفْصَلٌ إِلا دَخَلَهُ﴾، فهي نوازع منحرفة تتمكن من النفس وتترسخ فيها وتتغلغل معها في كامل الجسد، حتى تدخل في جميع عروقه ومفاصله، فيأتي صاحبها ليقبل على الدين وهو بهذه النفسية المنحرفة، فتجنح نفسه لما يوافق هواها من متشابهات الشريعة[٢]، فيفعل الباطل صارخاً: هذا دين!.

وكم عانت الأمة من أوهام وأمراض نفوس يصرخ أصحابها: هذا ما ندين الله به، ودين الله على النقيض منه.

---

[١] كذلك فإنها ترى العقوبة القدرية ابتلاء ورفعة، وترى المحنة منحة وفرجاً، وغير ذلك من توهمات خرقاء.

[٢] تنقلب المتشابهات في نفسه محكمات، والمحكمات متشابهات.

وقد حكى الله في كتابه عن حالة توهم التدين والهداية، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقوله: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠﴾ [الأعراف: ٣٠]، وغير ذلك من الآيات، ولكن آفة الناس أنهم يقرأون هذه الآيات ليصرفوها إلى غيرهم، ولا يتأملوها في خلجات نفوسهم، وهذا مسلك خاطئ في التعامل مع القرآن والسنة؛ يحرم العبد من الانتفاع بالوحي.

ومما يزيد أصحاب هذه النفسيات المنحرفة قناعة أنهم على دين أن شهوة الانتقام والتشفي لديهم تكون غالباً أقوى من شهوة الطعام والشراب والجماع، فتجد أحدهم يزهد في الطعام والشراب والجماع، لكنه لا يزهد في الانتقام والتشفي، فيظن أنه ثابت على دينه زاهد في دنياه، وهذا من زيادة تمكن الوهم منه.

ولهذا لا يرجو العلماء للخوارج توبة، ولا لغيرهم من أهل البدع، ليس لأن توبتهم لا يقبلها الله ﷻ، ولكن لأن حالة الإغراق في الوهم التي يعيشونها أكبر من أن تدركها عقولهم فتؤوب نفوسهم للتوبة، بعكس من وقع في المعاصي والفجور فإنه يدرك حقيقة فعله، وكذلك من كان ضلاله بسبب نقص العلم أو خطأ الفهم فإنه يسهل رجوعه للحق.

ومما يزيد كذلك من وهمهم ما يقع لهم من أحلام ومنامات، يظنونها رؤى صادقة، ويستدلون بها على صحة منهجهم، وذلك لجهلهم بالنفس وأحاديثها وطبيعة اللاوعي فيها، فالأحلام سواء كانت يقظة أو مناماً هي أحد أساليب تعبير النفس عن رغباتها وتطلعاتها، فالمرء في يقظته قد يشرد فيرى في خياله أموراً تهواها نفسه، فربما رأى المال الوفير، لأن نفسه محبة للمال، وإن لم يدرك ذلك، بل ربما ظن نفسه من الزاهدين، وربما رأى بعضهم الجاه والسلطان وتعظيم الناس له، فهذا في نفسه كِبر وإن لم يشعر به، وربما كان أحدهم مهاناً بين الناس فيرى في أحلامه وخيالاته احتراماً

وتقديراً من الناس له، لأن نفسه تعاني من حرمانها من كرامتها الفطرية وتتطلع لاستردادها، وربما رأى النساء والبنين، لأن نفسه تتوق للزواج وما فيه من مودة وسكينة ورحمة وذرية، وربما كانت نفسه منحرفة تبحث عن الشهوة الحرام، وربما رأى أحدهم نفسه مجاهداً في سبيل الله أو طالباً للعلم أو عالماً أو قائداً فاتحاً لبلاد المسلمين أو قائماً بأعمال خير جليلة أو طبيباً ماهراً أو تاجراً ناجحاً أو غير ذلك من أمور يعظمها الناس، لأن نفسه تتطلع إلى مقامات عظيمة نافعة، وغير ذلك من أمثلة كثيرة يراها الناس في أحلامهم؛ سواء أحلام المنام أو أحلام اليقظة، يظنها الناس رؤى ربانية وليست كذلك، ولهذا يسميها الناس: أحاديث نفس[1]، لأن النفس تتحدث في هذه الأحلام عن رغباتها وتطلعاتها.

ولهذا من أراد أن يدرك نفسه وشهواتها فليتأمل في حديثها له في المنام واليقظة، ليعرف حقيقة نوازعها وتطلعاتها، فيجاهدها فيما قد تشتهيه من نزوات منحرفة، أو يعمل على تحقيق ما تطمح إليه من مقامات عالية.

والغلاة والخوارج يعتقدون احتكار الحق فيهم، ويرون الباطل في غيرهم، ولهذا تحدثهم نفوسهم بالنصرة والغلبة على أعدائهم، ويرون ذلك في أحلامهم ومناماتهم وخيالاتهم، فيُسرُّون بها ظناً منهم أنها رؤى ربانية، ويؤولونها وفق قناعاتهم الفكرية، وما هي إلا وساوس نفسية، إذ هم يعيشون حالات نفسية منحرفة تنعكس على جميع حياتهم، فتنعكس على الفكر والسلوك، كما تنعكس على الأحلام والمنامات، فتأتي هذه المنامات لتزيد من تضخم الوهم في نفوسهم ومن قناعتهم بأنهم على الحق، وهكذا يدورون في حلقة مغلقة من توهم الهداية، فلا يتوبون مما هم فيه.

---

[1] لا يعني ذلك إنكار الرؤى الصالحة التي أخبر عنها النبي ﷺ في قوله: ﴿رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ﴾، لكن المقصد التفريق بين أحاديث النفس وبين الرؤى الصالحة.

وهكذا الغلو له طرائق دسيسة يتسلل بها إلى أمثال هذه الأنفس المنحرفة، فلا يدركها إلا من وفقه الله وهداه برحمته.

ومما يدلل على ما ذكرناه أن صاحب هذه النفس الانتقامية حين يمارس سلوكه المنحرف يكون في غاية الغضب، فإذا انتهى من تعاطي جرعة الانتقام والتشفي هدأت نفسه وسكنت، وشعر بالراحة واللذة والسعادة.

بل قد سمعت غير واحد من أصحاب هذه النفسيات المريضة يذكر أنه يستمتع بتكفير المرتد، وأن للتكفير لذة في نفسه، يظنها هو بجهل منه لذة التعبد لله بالبراءة من الشرك وأهله، بل وصل الحال ببعضهم للقول بأن للتكفير لذة لا يتذوقها إلا الموحدون!، وما درى هذا الضال وأمثاله أنه جاهل مريض يسعى في إشباع نزوات نفسه المريضة بتكفير المسلمين بغير حق، وهذا ينبئك عن القدر العظيم الذي تمكنت فيه هذه الانحرافات النفسية من أصحابها، ولو سلمنا جدلاً أنه قد كَفَّرَ بعلمٍ وحق، فإن النفس السنية تحزن لكفر الناس وردتهم، وتتمنى لهم الهداية، لا العكس كما يفعل هؤلاء الجهلة.

ولأجل تمكن النوازع المنحرفة منهم يكثر غدرهم بالناس ولا يلتزمون بما يقطعونه على أنفسهم من مواثيق وعهود أمان، لأن الغدر يزيد من إشباع نوازع الانتقام في نفوسهم، وذلك أن فيه إذلال وإهانة للمقتول قبل قتله، ولو كان الأمر مجرد ضلال في الفكر والفهم لما أقدموا على الغدر والخيانة ونقض العهود، إذ هم يعلمون أن الشريعة تأمر بحفظ الأمان والوفاء بالعهد، ولو كان لكافر أو مرتد أو محارب، كما قال الله: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ ﴾ [النحل: ٩١]، لكن الشريعة وإن أمرت بحفظ العهد والوفاء به، إلا أن نفوسهم المريضة تحب نقضه وتتلذذ

بذلك، فتأتي عقولهم الأسيرة لنوازعهم المنحرفة لتتكفل بمهمة تطويع الأدلة لإثبات صحة سلوكهم المجرم.

❖ منهج علاج الدوافع النفسية للغلو.

هذه النوازع المنحرفة الكامنة والمتجذرة في النفوس لابد لها من علاج، إذ هي من أهم أسباب الغلو، وعلاجها لا يكون بقمعها، فإن هذا لا تحتمله النفس مطلقاً، وردَّات فعلها تجاهه شديدة الفساد، كذلك فإنه لا يكون بمجرد الاقتصار على الوعظ العام التقليدي، فإن هذا لا يغير نفساً، إذ تغيير النفس يستلزم ما هو أعمق من ذلك، وذلك أن تغيير النفس يختلف كلياً عن تغيير الفكر، فالمرء قد يغير بعض قناعاته الفكرية بجلسة نقاش ومباحثة، أو أقل أو أكثر، لكنه لا يتمكن من تغيير نزوات نفسه وشهواتها إلا بجهد جهيد ومتابعة دؤوبة لها، ويستغرق في ذلك زمناً طويلاً، ولهذا مكث النبي ﷺ سنوات في تربية أصحابه وتغيير نفوسهم، ولهذا يؤكد العلماء على ضرورة مجاهدة النفس لتغييرها، وعدم الاقتصار على مجرد النصح والوعظ، ومناهج التربية التي تعتمد طريقة تغيير الأفكار والقناعات عند إرادة تغيير النفوس والشهوات هي لا شك مناهج قاصرة وسطحية.

والعلاج لهذه الانحرافات النفسية يكون بتوعية النفس وتبصيرها بما اكتسبته من نوازع فاسدة، وأسباب نشأتها وترسخها فيها، من تسلط الطغاة وظلمهم وقهرهم، وما حل ببلاد المسلمين من فساد وانحراف مجتمعي ومناهج تربية خاطئة، وغير ذلك من عوامل مؤثرة، وبيان مناقضتها للشريعة.

وتبصير النفس بنوازعها المنحرفة من نهج القرآن في التربية، كما في قول الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦]، وهو ما يُعرف لدى المختصين بـ "إدراك النفس" أو "إدراك الذات".

ثم يكون تهذيب وإصلاح هذه النوازع وضبطها بالشرع، وتوجيه النفس إلى العدو الحقيقي الذي ينبغي أن تنتقم منه، وهو عدو هذه الأمة، لا الأمة نفسها.

وهذه هي التربية الصحيحة، وهكذا ينبغي أن تكون مناهج التربية والتزكية؛ عميقة لا سطحية، حتى تؤتي ثمرتها المرجوة، وهو أمر شاق طويل لا يتحقق بموعظة أو اثنتين، وليس هذا مقام الإسهاب فيه.

وهذه التربية إنما تكون مع من ابتُلي بانحراف بعض نوازعه النفسية بما يؤهله لسلوك مسلك الغلو، ومن وقف على أول طريق الغلو دون أن يسلكه ويتعمق فيه، وكذلك من وقع في بدعة الخوارج وسلك مسلكهم ثم تاب توبة صادقة صحيحة إلى مذهب السنة، فإن جميع هؤلاء بحاجة لهذا النوع من التربية، والتي هي علاج وقائي لمنعهم من الانحراف إلى مسلك الغلو، أو منعهم من عودتهم إليه بعد توبتهم منه.

وأما المتلبسون ببدعة الخوارج فقد تقدم الإشارة إلى علاجهم النبوي الأوحد، وهو العلاج الدوائي الوحيد المناسب لذلك المرض.

وما أشرنا إليه من التربية النفسية هو العلاج الآني القريب لبدعة الغلو، وأما العلاج البعيد فهو إزاحة هؤلاء الطغاة عن الحكم، فهم أس الفساد وبلاؤه، وسبب جميع ما حل بالأمة من كوارث ونكبات، وما أصاب الناس من أمراض وانحرافات نفسية، منها ما كان سبباً في تولد الغلو وانتشاره في بلدان المسلمين.

وقد يعترض البعض على ما ذكرناه في هذه المسألة بأن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حين ناظر الخوارج لم يناقشهم في فساد نفوسهم، وإنما ناقشهم في فساد أفكارهم.

وهذا اعتراض صحيح لازمه خاطئ، وذلك أن المناظرة تكون في الأفكار والسلوكيات لا في المشاعر والشهوات، لكن لابد للضال حين يهتدي من إصلاح وتهذيب نوازع نفسه المنحرفة، وهذا حصل ولا شك لمن تاب من الخوارج على يد ابن عباس رضي الله عنهما، حيث اختلطوا بمجتمع الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وتأثروا بالبيئة المحيطة بهم، وخضعوا لتربية الصحابة كما هو حال غيرهم من أبناء المجتمع من التابعين، وبذلك طهُرت نفوسهم وصلُح حالها.

❖ **بين النفس السُّنِّيَّة والنفوس المنحرفة.**

من نافلة القول المناسبة للمقام الإشارة إلى وجود ردود أفعال نفسية أخرى تنشأ تجاه القهر والظلم الذي تتعرض له الأمة، وذلك كالشعور الزائد بالخوف والضعف، والميل للموادعة والمسالمة، وهذا مما يغذي مذهب الإرجاء، والإفراط في التيسير وتهوين المنكرات[1].

وأما صاحب النفس السنية المعتدلة فوسط بين ذاك الإفراط وهذا التفريط، فهو لا يتحرك وفق دوافعه النفسية المتأثرة بالبيئة الفاسدة المحيطة به، بل يغالب نفسه ونوازعها حتى يُطوّعها لما تقرره الشريعة، محققاً بذلك قول رسول الله ﷺ: ﴿لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ﴾[2].

وصاحب النفس المصابة بنزعة الانتقام والتشفي حين يسلك مسلك العلم تجنح نفسه لما يوافق طبعها المكتسب ويلائم نوازعها المنحرفة، فيَعظُم في نظره جانب الشدة والغلظة والعقوبة، ويستمتع بقراءة قول الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٧]، وما في معناه، وتتضخم هذه المعاني في نفسه حتى تسع عنده ما لا تسعه في مراد الله، ويجتهد في تتبعها في مظانها وغير مظانها، ولا يلتفت لقول الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ولا لقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وغير ذلك من معاني اللين والرفق والرحمة التي جاءت بها

---

[1] مسألة "الدوافع النفسية للإرجاء" بحاجة كذلك للبحث والنظر.

[2] "معالم النفسية السنية ومنهجية بنائها" من المسائل التي أظنها بحاجة لبحث علمي عميق في واقعنا المعاصر وما يعصف به من أهواء ونزعات نفسية فاسدة تتقاذف بأصحابها وسط أمواج البدع والانحراف المتلاطمة.

الشريعة، بل ربما ضاقت نفسه بسماع مثل هذه النصوص، لأن طبائعها المنحرفة على الضد من هذه المعاني السوية .. وهكذا تنشأ التأصيلات "العلمية" للغلو.

ومثله صاحب النفس المصابة بشدة الخوف والضعف والميل للموادعة والمسالمة، فإن نفسه تجنح لما يوافق طبعها المكتسب ويلائم نوازعها المنحرفة، فيَعظُم في نظره جانب الرفق واللين والرحمة، ويستمتع بقراءة قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وما في معناه، وتتضخم هذه المعاني في نفسه حتى تسع عنده ما لا تسعه في مراد الله، ويجتهد في تتبعها في مظانها وغير مظانها، ولا يلتفت لقول الله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال: ٥٧]، وما في معناه، بل ربما ضاقت نفسه بسماع مثل هذه النصوص .. وهكذا تنشأ التأصيلات "العلمية" للإرجاء.

فإذا حصل التناظر العلمي بين الفريقين ازداد كل منهما غلواً في مذهبه وجنوحاً ضد الآخر، وهذه ردود فعل عكسية تفعلها النفس دون وعي، وهكذا نرى شدة الغلو وشدة الإرجاء، ويستمر الأمر إلى ما لا نهاية.

ومن كان هذا حال نفسه وانحرافها فلا يجوز له أن يطلب العلم، ويجب شرعاً أن يُمنع من ذلك، حتى يُصلِحَ نفسه الفاسدة أولاً، فإنْ طلبه دون إصلاحها فلا يجوز أخذ العلم عنه، إذ هذه نفسٌ إن سلكت سبيل العلم ضلت وأضلت.

أما طالب العلم السني فإنه يسعى للارتقاء إلى الاعتدال والاتزان والنضوج النفسي، ويُصلح نفسه ويقومها ويهذبها لتوافق الشرع والسنة، فتأتي تأصيلاته وتقريراته العلمية ومواقفه في النوازل مهتدية بالوحي موافقة للشرع.

والنفس السنية هي النفس التي تشابه صفاتها ونوازعها ورغباتها صفات ونوازع ورغبات نفس النبي ﷺ الطاهرة، وهذا مقام عظيم يجهد المرء في الوصول إليه، وعليه

أن يجتهد في تطويع نفسه لذلك، حتى يكون سنياً حقاً، وهو في ذلك على عبادة وتقرب لله ﷻ، إذ السنة لا تنحصر في العقائد النظرية والأحكام الفقهية والشعائر التعبدية، بل هي كذلك نوازع نفسية وطرائق تفكير.

ومن أدرك طبيعة النفس البشرية ونوازعها، ورأى الفروق بين المعتدلة منها والمنحرفة، أمكنه رؤية الانحرافات النفسية واضحة في الأفكار والسلوكيات، وكذلك في نقاشات الناس وخصوماتهم، واستطاع أن يميز بين ما هو نفسي منها وما هو علمي موضوعي، وهذا باب من الفهم والبصيرة لا يُرزَقه كل أحد، ومن رُزِقَه فهو على خير وافر وفقه عظيم.

وهذا العلم لا يُرزقه إلا من سعى في تحصيل أسبابه، وأول ذلك أن يفهم طبيعة النفس وخصائصها وتحولاتها، ويسعى في التمكن من إدراك نفسه وفهمها، ومن استطاع أن يدرك نفسه ربما تمكن من قراءة نفس غيره وإدراك منطلقاته، أما من كان جاهلاً بنفسه فهو بنفس غيره أجهل ولا شك، وأكثر الناس اليوم على هذا النوع، ولهذا يكثر فيهم السقوط في مثل هذه الأوحال النفسية، سواء في الأفكار والسلوكيات، أو في النقاش والخصومات.

❖ **إضافة ١:**

من الأساليب النفسية للغلاة والخوارج في طرح أفكارهم.

للغلاة والخوارج أساليب "نفسية" غير علمية في طرح وترويج عقائدهم وأفكارهم الضالة بين شباب المسلمين، منها ما يُعرف بأسلوب "الصدمة".

وهو أسلوب نفسي بحت؛ يعتمد على إحداث صورة من صور التهيؤ النفسي أو حالة شعورية معينة لدى المتلقي عند تلقينه المعلومات المراد عرضها عليه، وذلك لترسخ في أعماق نفسه، فيُسَلِّم لها وتأسره وتتحكم فيه، ولا تبقى مجرد معلومة عقلية قابلة للنقاش والأخذ والرد، ويكون ذلك باستغلال جهل المتلقي أو هشاشة علمه وتعمد إيقاع صدمة عنيفة مزلزلة على نفسه أثناء دعوته وطرح الأفكار والعقائد عليه، وذلك من خلال نسف وإسقاط وإبطال جميع ما حوله من أفكار ومعتقدات وأحوال حياة، واستعمال العبارات العنيفة شديدة التأثير في ذلك، وأن جميع ما عليه الناس اليوم إما باطل أو شرك، وأن الناس قد غرقوا في الضلال وانحرفوا انحرافاً كلياً عما نزل على رسول الله ﷺ، وليس هناك من حق وهدى على هذه الأرض إلا ما نعرضه عليك، فهو الحق المبين والصراط المستقيم، ويزداد عنف الصدمة في نفس المتلقي إذا كانت تلك الأفكار مرفقة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وبعض الآثار المروية عن السلف، مع إسقاطات فاسدة على الواقع[1].

---

[1] وهذا أسلوب يستعمله كذلك الأفراد والجماعات، فإن الجماعة إذا أرادت الاستحواذ على أفرادها وتربيتهم على التعصب لها وعدم تركها يستعملون هذا الأسلوب، فيعملون على نسف وإسقاط بقية الجماعات الأخرى العاملة لخدمة الإسلام، حتى لا تبقى جماعة قائمة بأمر الله غيرها، وكذلك الأفراد؛ فتجد شيخاً له أتباع، يخشى من تركهم له والذهاب لغيره، فيعمل على نسف وإسقاط جميع الشيوخ الآخرين، حتى لا يُبقي ناطقاً بالحق ولا عالماً بالواقع على الأرض غيره، فتقع الصدمة على أتباعه ويلتفون حوله ويعظمونه ويتعصبون له، وقد يصلون به إلى مرتبة القداسة –لا شعورياً–، وهذا يفعله كل شيخ نفسه مريضة بالكِبر وحب التعظيم والرئاسة.

هنا ينهار المتلقي أمام تلك الصدمات العنيفة التي تهز كيانه كاملاً، فتُنسف في نفسه جميع الأفكار السابقة، وجميع ما عليه الناس من آراء ومذاهب وتوجهات، ويكفر بها وبأصحابها، ويتلقى العقيدة الجديدة بتعطش وشغف، لتمتلئ بها نفسه، خاصة وأنها تشبع نوازعها الفاسدة، وتخاطبها خطاباً دينياً شديداً، وهكذا يترسخ الغلو في أعماق نفسه المنحرفة.

ومع ترسخ العقيدة الجديدة الفاسدة ونموها وتضخمها في نفسه تتكون لديه مناعة نفسية من قبول ما يضادها من الحق، فلو عُرِضَت عليه يوماً أفكار تشبه الأفكار التي كان يعرفها قبل الصدمة وتبرأ منها فإنه ينفر منها ولا يقبلها، ولو كان قائلها من أعلم الناس وأحكمهم، ولهذا تجد الغلاة والخوارج يرفضون الحق عند عرضه عليهم، رغم قوة حجته وعظيم بلاغته، بل إنهم يرون فيه الضلال والجاهلية التي عليها الناس وهداهم الله منها وبصَّرهم بها، والحقيقة أن الحواجز النفسية العميقة التي صنعتها الصدمة هي التي تحول بينهم وبين قبوله.

كذلك من آثار هذه الصدمة على المتلقي أنها تجعله يرى داعيه مُخلِّصاً له من الضلال إلى الهداية، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشرك والكفر إلى الإيمان والتوحيد، فيقع في نفسه الانجذاب له والتعلق الشديد به، فيتعامل معه كما يتعامل التائه مع مخلِّصه والغريق مع منقذه، حاله في ذلك حال رجل غريب في بلدة؛ أتاه من يحذره من خطر عظيم شديد يريد بعض الناس من أهل تلك البلدة إيقاعه به، وهو لا يعرف البلدة ولا طرقها ولا أهلها، فإنه يرى هذا المحذِّر له هو مخلِّصه الوحيد من هذا الخطر الكبير، فيتبعه تبعية عمياء في كل ما يأمره به، ولو أمره بما هو مستغرب لا تقبله العقول.

وهذه ردود أفعال نفسية لا إرادية تحصل لكل إنسان عند وقوع مثل هذه الصدمات عليه، فيتصرف على هذا النحو دون وعي منه، إلا من كان متزناً عاقلاً فإنه يضبط نفسه ويمنعها من الانهيار.

فهذا أسلوب نفسي في طرح الأفكار والعقائد لا يتعرض له أحد من أصحاب النفوس الضعيفة أو المنحرفة إلا ويحصل له الانهيار ثم التسليم ثم التعلق ثم التعصب والانغلاق، بغض النظر عن نوع الفكر والاعتقاد المعروض عليه، فقد يكون فكراً مغالياً خارجياً، أو فكراً إرجائياً أو صوفياً أو غير ذلك، وكذلك قد يكون في الأفكار اللادينية كالعلمانية والليبرالية والديمقراطية والإلحاد وغيرها.

ويترتب على هذه الصدمة انحصار المرجعية الدينية في هذا المخلِّص، أو هؤلاء المخلِّصين، وهذا يفسر سر انغلاق الغلاة والخوارج على رؤوسهم وشيوخهم في التلقي، ورفض كل مصدر غيرهم، وهذا ما يريده شيوخ ورؤوس الغلو والخارجية، وهو حصر مرجعية التلقي في أشخاصهم، فإن هذا يحقق إشباعاً قوياً لنزعة الكِبر المترسخة في نفوسهم، كما يحقق إشباعاً قوياً كذلك لشهوة الانتقام من مخالفيهم، وذلك بتمكنهم من صرف بعض الشباب عنهم.

ولهذا نرى دعاة الغلو والخارجية يُكثرون من الدندنة حول ما يحصر المرجعية في شخوصهم، كالقول بأنهم على السنة والتوحيد الصحيح دون غيرهم، وأن غيرهم لا يخرج عن الشرك والكفر، أو الباطل والضلال، أو الجهل والعمى، والحقيقة أنهم هم على الباطل والضلال، إذ كل من عرف أصول أهل السنة والجماعة يعلم يقيناً أن منهجهم يناقض فكرة المرجعيات الدينية، وأنها من عقائد الشيعة وأصولهم، وهي كذلك لسان حال الغلاة والخوارج وبعض المبتدعة والمتعصبة، وأما أهل السنة فقد رسم منهجهم في ذلك الإمام مالك رحمه الله حين قال: (كل يؤخذ من قوله ويُرد إلا صاحب هذا القبر)، وأشار إلى قبر النبي ﷺ.

فأهل السنة يرجعون لعموم علماء الأمة ولا يحصرون أخذ الدين في رجل أو رجال بأعيانهم دون غيرهم، وعمل الصحابة والتابعين وكذلك المدارس والمذاهب الفقهية باختلاف أئمتها وعلمائها شاهد على ذلك[1].

ولهذا نرى الغلاة والخوارج لا يستجيبون لنصح العلماء وطلبة العلم في الأمة، مهما كثروا، لأن الصدمة تمنعهم من ذلك، فهم من شدة الصدمة ينكفؤون على هذا المخلِّص مرجعاً دينياً وشرعياً وحيداً، ويكفرون بكل من عداه، والمخلِّص قد يكون فرداً أو جماعة، وهكذا تُبنى عقيدة الولاء والبراء عميقة راسخة في اللاوعي لديهم، وينشأ التعصب اللاشعوري فيهم.

والولاء عقيدة واسعة في الإسلام، تشمل جميع الأمة، لكنها تضيق جداً في نفوس الغلاة حتى تنحصر في شيوخهم المُخَلِّصين، وذلك أن الأمة قد ضاقت في نفوسهم

---

[1] قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: (كان العامي يسأل من شاء من أصحاب رسول الله ﷺ عن حكم النازلة تنزل به، فيفتيه فيعمل بفتياه، وإذا نزلت به نازلة أخرى لم يرتبط بالصحابي الذي أفتاه أولاً، بل يسأل عنها من شاء من أصحاب رسول الله ﷺ ثم يعمل بفتياه). [أضواء البيان، ٧/ ٥١٩، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ].

وقال أيضاً: (وأما نوع التقليد الذي خالف فيه المتأخرون الصحابةَ وغيرهم من القرون المشهود لهم بالخير، فهو تقليد رجل واحد معين دون غيره من جميع العلماء، فإن هذا النوع من التقليد لم يرد به نص من كتاب وسنة، ولم يقل به أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا أحد من القرون الثلاثة المشهود لهم بالخير، وهو مخالف لأقوال الأئمة الأربعة رحمهم الله، فلم يقل أحد منهم بالجمود على قول رجل واحد معين دون غيره من جميع علماء المسلمين، فتقليد العالم المعين من "بدع" القرن الرابع، ومن يدعي خلاف ذلك فليُعَيِّن لنا رجلاً واحداً من القرون الثلاثة الأولى التزم مذهب رجل واحد معين، ولن يستطيع ذلك أبداً، لأنه لم يقع البتة). [المصدر السابق، ٧/ ٥٢٠ - ٥٢١].

حتى انحصرت في جماعتهم وأتباع طريقتهم، والولاء والبراء تابِعَين لها، وهذا يفسر سر تعصبهم الشديد لجماعاتهم ومعاداة كل من خالفها.

والصدمة ليست هي الأسلوب الوحيد لهم في طرح عقائدهم وأفكارهم، وإن كانت أسلوباً رئيساً يعتمدونه في خطاباتهم، وليس الهدف من هذه الرسالة استقصاء جميع أساليبهم، فهذا أمر يطول، وإنما نكتفي بالإشارة لبعضها كمثال للفت النظر إلى أساليبهم النفسية المتبعة في الدعوة.

والمتتبع لأساليب الغلاة والخوارج في طرحهم الفكري يلحظ غلبة الجانب النفسي عليه وبعده عن جوهر العلم وحقيقة الواقع، وإن كان لا يمتنع وجود أحرف وكلمات علمية وفكرية بين ثنايا خطاباتهم النفسية، لكنها ليست أصيلة في الخطاب، وإنما داعمة للأحرف والعبارات النفسية.

والناظر في إعلام الغلاة والخوارج يرى ذلك بوضوح، ويظهر له ما يبذلونه من جهد في استقطاب الشباب ذوي النوازع المنحرفة، وذلك عبر ما ينشروه في إعلامهم المضلل من مواد مرئية ومسموعة ومكتوبة تغذي تلك النوازع الفاسدة بطرق وأساليب مباشرة وغير مباشرة.

❖ **إضافة ٢:**

هشاشة وضعف الجماعات ذات البناء النفسي.

النفوس إن كانت سوية اتفقت وتآلفت واجتمعت، وأما إن كانت منحرفة فإنها تفترق ولا تجتمع، وذلك أن سبيل السنة واحد، وسبل الانحراف مختلفة متباينة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والنفوس في انحرافاتها تتباين، ودرجات التباين بينها متباعدة متسعة إلى ما لا نهاية، ويحصل بينها من خطوط الالتقاء والافتراق الشيء الكثير، وكذلك يقع فيها من التضاد المؤدي للتصادم الشيء الكثير، ولهذا نرى الخوارج يكفر بعضهم البعض ويقتتلون فيما بينهم، وذلك أن دوافعهم النفسية في سلوك سبيل الغلو متباينة، فمنهم من سلكه بسبب الكبر، ومنهم من سلكه لأجل الانتقام، ومنهم من سلكه تأثراً برفقائه وأصحابه، ومنهم من سلكه طلباً للمال والمنصب، ومنهم من سلكه خصومة وعناداً مع سني أو مرجئ، وغير ذلك من الدوافع النفسية المختلفة.

ولهذا يرى الناس الغلاة يجتمعون في أول الأمر، ثم لا يلبث أن يظهر تباين نفوسهم فيما بينهم، فيفترقون، ثم يقتتلون، بعد أن يقع التكفير بينهم، ولهذا لا نرى جماعة سلكت مسلك الغلو إلا ووقعت في الفرقة والاقتتال فيما بينها، ثم تنتهي وتندثر.

وذلك أنها جماعات ذات بناء هش مهترئ سرعان ما ينهار، وإن ظهر للناس أنها أبنية قوية متينة متماسكة ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وسبب ذلك أنها جماعة قامت على النوازع النفسية ولم تقم على أسس علمية متينة، والنفوس تختلف وتتباين، بل وتتقلب، فما ترضاه النفس اليوم لا ترضاه غداً،

وما تأنف منه اليوم تُقبِل عليه غداً، وهذا يكون في الواحد من الناس، فإذا كان في جماعة من آلاف أو عشرات الآلاف، فباب التباين والتقلب لا يمكن حصره، وخطوط التداخل والتشابك والتنافر بين الأهواء لا يمكن تصورها لكثرتها، وجماعة هذا حالها وقوامها لا يمكن أن تستمر أو تبقى، مهما زعم أصحابها أنها باقية، وهكذا كل جماعة تعتمد البناء النفسي المنحرف في نشأتها وتأسيسها.

كذلك فإن من أسباب انهيار هذه الجماعات وضعف وهشاشة بنائها التنظيمي اعتمادها على البناء النفسي أصالة، وتدعيم هذا البناء بما يغذيه وينميه من أفكار وسلوكيات، فالنفوس أصيلة والأفكار والسلوكيات داعمة لها، والنفوس مهما اشتدت لها طاقة تنتهي عند حد كما تنتهي طاقة الجسد، فإن الجسد إذا أجهده صاحبه بالركض مسرعاً انقطع، ولو مشى واستراح لوصل إلى غايته سليماً معافى، وهكذا في إقبال النفس على ما ترغب وتهوى، ولو كان خيراً أو حقاً، فإنها إن أقبلت بكل طاقتها استفرغت وسعها وهِمَّتها، فيدركها العجز والضعف والملل، فتترك ما أقبلت عليه، ولو كان خيراً تحبه، بل ربما كرهته وارتدت عنه، ولهذا يروى في الحديث: ﴿إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوغِلْ فِيهِ بِرِفقٍ، ولا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ الله، فَإِنَّ المُنْبَتَّ لا أَرْضاً قَطَعَ ولا ظَهْراً أَبْقَى﴾.

ولهذا أمر النبي ﷺ بموازنة النفس عند إقبالها؛ بالتدرج في القليل، حتى لا تنقطع وتفتر همتها، ومن ذلك قوله كما في مسلم: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ العَمَلِ إِلَى الله أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ﴾[1].

[1] مستفاد من كتاب "الفصل بين النفس والعقل" للشيخ عبد العزيز الطريفي، ص ١٢٢ – ١٢٣، بتصرف، دار المنهاج – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ، وهو كتاب قيِّم يُنصح بقراءته.

والناظر في أحوال الغلاة والخوارج؛ أفراداً وجماعات يلحظ هذا الأمر، وهو هشاشة جماعاتهم وسرعة انهيارها، وهكذا كل تنظيم أو جماعة تعتمد البناء النفسي دون العلمي، سواء كان قوام هذا البناء النفسي نوازع كبر وانتقام، أو حب جاه وسلطان، أو خصومات وأحقاد، فكل هذه تنظيمات سريعة الانهيار والزوال، وأما التنظيمات والجماعات المبنية على أسس ومبادئ وقيم فكرية وعلمية فإنها تبقى، ولو كانت هذه القيم والمبادئ والأفكار باطلة، وهذا مشاهد في حياة الناس بما لا يحتاج لتدليل.

والختام يقتضي التأكيد على أن باب الدوافع النفسية للغلو أكثر تعقيداً واتساعاً من أن تستوعبه هذه الصفحات، فهذا باب متشعب يقتضي عمقاً وشمولاً في البحث والنظر، وما تناولناه بالبحث في هذه الرسالة لا يحقق ذلك، وإنما هي مجرد إشارات سريعة، كذلك فإن الرسالة ليس فيها مناقشة جميع الدوافع النفسية المؤدية لوقوع المرء في الغلو، إذ ثمة دوافع أخرى تؤدي لذلك، لكن لعل في الرسالة إشارة لأهم الدوافع الموجودة في حالنا وواقعنا فيما نحسب، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين ..

الفهرس

البحث عن حال النفس ونوعها، وما يؤدي هذا النوع من اختيارات عقلية فاسدة هو من مباحث الحق، ومن مباحث علوم أهل الإسلام، وهو علم مبثوث في ثنايا كتب أهل العلم، وكلامهم التربوي العظيم، لكن قلما تجد من أفرد له أجزاء علمية خاصة، تكشف نفوس أهل الحق، ونفوس أهل الباطل، من الكفار والمنافقين والمبتدعة، ولذلك جاء بحث الشيخ أنس خطاب هنا ليجمع شيئاً يفتح هذا الباب، ويعطي بعض حسواته، فإن هذا الباب واسع عظيم، والشيخ هنا يبتدئ، ومن كان كذلك كانت كلماته كأثر القرع للتنبيه، ثم إن شاء الله يأتي البناء، وهو ولا شك ضرورة مهمة.

الشيخ أبو قتادة الفلسطيني

وما لم يتجه العلماء وطلبة العلم على وجه العموم والجماعات المجاهدة على وجه الخصوص لدراسة الأسباب النفسية الحقيقية لنشأة الغلو، وصياغة مناهج تربية إسلامية جديدة تُعنى بمعالجة هذه الأسباب على وجه صحيح، فلن تستفيد الأمة من نكباتها وتجاربها المريرة، وسنرى تكراراً لظهور الغلو والخارجية وإعمال السيف في الأمة؛ لا في عدوها، ومن هنا تأتي أهمية دراسة الدوافع النفسية للغلو، والتي تأتي هذه الرسالة في سياق محاولة طرق هذا الباب وإثارة المسألة للبحث والنقاش والمدارسة.

أنس خطاب

